إشراقات قرآنية

الجزء الثاني

هاني مراد

شبكة الألوكة
www.alukah.net

إشراقات قرآنية

الجزء الثاني

هاني مراد

حقوق الطبع والنشر متاحة

شريطة عدم التغيير أو الإضافة أو الحذف

الفهرس

إهداء 5

مقدمة..... 6

قم فأنذر 7

التوكل في سورة يوسف..... 9

لعلك باخع نفسك..... 10

الآيات القرآنية بين التنظير والتطبيق 12

الحوار بين المستضعفين والمستكبرين 14

بين موسى وعمر 16

إنهم فتية آمنوا بربهم..... 19

معركة العقيدة..... 21

إخوة الصدق..... 23

من إعجاز قصة قارون 24

العبرة من بني إسرائيل..... 26

الصبر على الدنيا..... 28

ويل للمطففين..... 29

النور في سورة النور..... 31

فأحسنوا الذبحة..... 33

هل أباح الإسلام الرقّ؟ 35

كيف نتأثر بالقرآن..... 37

وتبسمك في وجه أخيك صدقة 39

سورة الرعد علاج لمرض الإلحاد..... 41

معنى إن الدين عند الله الإسلام 43

معركة النفْس قبل معركة السيف 45
لماذا كنّا خير أمّة؟ 47
قل هو من عند أنفسكم..... 49
حكمة القدَر في سورة يوسف..... 51
الدعاء المعجزة..... 53
ورحمتي وسعت كل شيء 55
فانسلخ منها 57
مسجد الضرار 59
المعركة الكبرى..... 61
ويصبر على أذاهم..... 63
إبراهيم أبي 64
علّمني زكريا..... 66
بواد غير ذي زرع 68
لا ينال عهدي الظالمين 70
المنشاوي يقرأ بقلبه 72
الوجوه صفحات تُقرأ! 74
ومضات 76

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى زوجتي الحبيبة التي أخلصت لي روحا ونفسا ووجدانا، ومنحتني زهرة شبابها وثمرة عمرها، ووهبتني فكرها وخلدها وصادق حبّها، وآثرتني بمهجة قلبها، وأنارت لي من سنا ودّها،

وإلى أبنائي أحبتي، الذين أغدقوا عليّ من فيض روحهم وحنانهم، وأحسنوا إليّ في برّهم وحبّهم،

وإلى أولئك المخلصين الذين ألهموني وأناروا شعلة الأمل في قلبي للكتابة،

أهدي هذا العمل، وأدعو الله أن يتقبله منا جميعا.

مقدمة

لا يقف إعجاز القرآن الكريم على ما يحويه من معجزات باهرات، لكنه يصحب المؤمن في حياته، فينير روحه، ويهديه إلى الطريق، ويجد فيه السلوى عن كل فائت، والهداية في كل حيرة، والحكمة من كل اختبار، والثبات عند كل نازلة.

وهذه كلمات، كتبتها في مواقف متباينة، وأيام متباعدة، وقد رأيت ضمّها في الجزء الثاني من كتاب "إشراقات قرآنية"، وأسأل الله تعالى أن يكون فيها النفع، وأن تلقى القبول.

قم فأنذر

حين قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: "قم فأنذر"، قام وأنذر أكثر من 20 سنة، هي كل حياته بعد الوحي!

قام ولم يفتر، وأنذر ولم يتوان!

قام حتى تفطرت قدماه، فإذا سألته السيدة عائشة، قال: أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا؟

قام وحمل الأمانة الكبرى، وعبء التكليف والتبليغ الثقيل.

كان ينام على الحصير، وطعامه التمر والشعير، ويمضي الشهر لا يوقد في بيته نار!

كان يبيت طاويا، ويصبح صائما، ويعصب الحجر على بطنه من ألم الجوع!

مات ولم يشبع من خبز في يومين متتابعين.

فقد الأب والأم والأبناء والبنات والزوجات.

رحل عن بيته وأهله ووطنه، وقُتل حوله أصحابه.

كذّبه قومه وهم أعلم الناس بصدقه، وحاصروه وطاردوه وحاربوه! وعندما أمكنه الله منهم، قال لهم: "لا أقول لكم إلا ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء."

تربص به المنافقون فاتهموه في عرضه، وتخاذلوا عن نصرته، وألّبوا عليه قبائل العرب والمشركين!

وعندما جاءته الأموال، لم يأخذ منها شيئا، بل مات ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعا من شعير!

ولأن قلبه كان معلقا في السماء، فقد اختارت روحه الرفيق الأعلى.

التوكل في سورة يوسف

تظهر عبادة التوكل في مواقف عدّة من أحداث القصة المتباينة. وتتبدى ملامح ذلك التوكل مع اشتداد الابتلاءات والخطوب بيوسف ويعقوب عليهما السلام.

فها هو يوسف إذ يدرك كراهية إخوته له، ويتوجس تربصهم به، يطلب منه يعقوب عدم إخبار إخوته برؤياه: "يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً"، فيشعر بضرورة اللجوء إلى الله والتوكل عليه، وسط هذا العدد الكبير من الإخوة الذين يكبرونه سنا، ويفوقونه قوة، وذلك الشعور المشتعل بالكراهية الذي يشعر به منهم، وهو في هذه السنّ الصغيرة!

كما يظهر توكل يعقوب عليه السلام في تركه يوسف مع إخوته مع علمه بكراهيتهم له، وعندما ادّعوا أكل الذئب ليوسف، قال لهم: "وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ." ويظهر التوكل كذلك في دعاء يوسف، ولُجْئه لربه: "وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ."

وعندما طُلب إلى يوسف تعبير رؤيا الملك، أخبر به وهو ما يزال في السجن، ولم يشترط أو يطلب الخروج أولا! بل عندما أمر الملك بخروجه، لم يخرج، بل طلب تبرئته من التهمة التي ألصقت به أولا، وقال: "ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ." ومع جسامة مهمة الإشراف على اقتصاد مصر في هذه الفترة الحرجة، طلبها يوسف، متوكلا على ربه: "اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ."

ويأتي ذكر التوكل صريحا في قول يعقوب لبنيه: "ومَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ." ويتأكد توكل يعقوب عند فقد ابنه الآخر، في قوله: "بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً."

لعلك باخع نفسك

إنه ذلك القلب الرؤوف؛ يكاد يهلك نفسه حرصا على إيمان غيره. ذلك القلب المتألق؛ يشرق بنور حبه على آفاق العالمين!

إنّ نبضات هذا القلب الأمين لتكاد تقتلعه من صدره، فزعا من أن تزل قدم بعد ثبوتها، أو أن تضل فكرة بعد سطوعها، أو أن يذوب يقين بعد رسوخ، أو أن يلوّث ضمير بعد نقاء.

يبكي ذلك القلب حين يرى شابا تهزمه الفتنة، أو شابة تنهشها الوحدة، أو رجلا يقهره الظلم، أو امرأة يغلبها القهر، أو عجوزا يُعْوِزُه الفقر، أو عجوزة يَحْزُنُها النكران.

ويودّ صاحب هذا الضمير الحيّ لو اقتطع من جسده، بل لو أفنى جسده وروحه، كي يوقظ الضمائر الغافية، أو يستنقذ النفوس الساهية، أو يحفظ نور الإيمان حياً في القلوب، سليما من مكر الشيطان وكيده.

ولأن صاحب هذا القلب النقي لا يلقى إلا العنت والصلف والمقاساة، ولا يرقّ له أحد، فقد جاءت تلك التسلية الربانية بهذا الأسلوب الرقيق: "إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين." فلو شاء تعالى لأنزل عليهم معجزة، أخضعت كبراءهم، وأذلت كبرياءهم، لكنه تعالى يريد اختبارهم.

ولأن المؤمنين يقفون الموقف ذاته، ويتجشمون العناء نفسه، فإن هذه الآيات تسلية لهم، ألّا يسكبوا العبرات قهرا أو حزنا، لأن الأمر كله لله.

الآيات القرآنية بين التنظير والتطبيق

الملاحظ أن الآيات الكريمة التي ترتبط بالواقع والسلوك العملي، كانت تنزل بعد الأحداث؛ بعد التجارب الإنسانية؛ بعد المعارك، وبعد الابتلاءات! تنزل في لحظات انصهار النفس البشرية وتفاعلها مع الأحداث، لأنها تكون في أفضل اللحظات استعدادا لتعلم الدرس! تنزل لتقولب تلك النفس وتهذبها وتشكلها بالشكل الصحيح؛ بعد أن تكون قد خاضت التجربة العملية وانفعلت بها وأحدثت أثرها فيها، فتصحح مفاهيمها وترسمها رسما لا ينمحي ولا يذوب!

رأينا ذلك بعد حادثة الإفك. كان من الممكن أن تنزل آيات التبرئة على الفور، لكنها لم تنزل حتى خاض الخائضون وأخطأ المخطئون، وكذب الكاذبون والمنافقون، وحتى كادت تقع الفتنة بين المهاجرين والأنصار، وحتى بكت السيدة عائشة رضي الله عنها، وقالت: "لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظنّ أن البكاء فالق كبدي."

ورأينا ذلك بعد معركة أحد، وما وقع من مصيبة الهزيمة والقتل والأسر، حتى كان المسلمون حائرين، لا يعرفون سببا، ويتساءلون: "أنى هذا؟" حتى تناول القرآن الكريم مفاهيم النصر والهزيمة، والدنيا والآخرة، والحياة والموت، والقعود والجهاد، ونزلت فيهم: "مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ،" وحتى نزلت فيهم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا.... قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ."

ورأيناه بعد خمسين يوما من غزوة تبوك وتخلف الثلاثة، وتأزم الموقف حتى كادت أرواحهم تزهق، "وضاقَتْ عَلَيْهِمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ!"

ورأيناه في كل الأحداث الجسيمة التي نزل بها القرآن الكريم!

إنّ التنظير غير التطبيق! والواقع العملي الملتهب غير الكلام النظري البارد! والتجربة الحية المفعمة بالأحداث والمشاعر والخوالج المتأججة، أوقع أثراً، وأنجح علاجا للنفس البشرية، من الكلمات المجرّدة مهما كانت بليغة أو حكيمة!

الحوار بين المستضعفين والمستكبرين

من الحوارات الرائعة التي تدعو إلى التفكر، تلك التي بين المستضعفين والمستكبرين! فلماذا يتلاومون وقد دخلوا جميعا إلى النار؟ ولماذا يتلاومون ولن يغنيهم ذلك يوم القيامة شيئا؟ يصوّر لنا القرآن الكريم تلك الحوارات وكأنها واقع مشاهد أمامنا، لكي نعتبر، ونستخلص الحكمة، ونرى الحقيقة رأي العين.

فعندما يتهم المستضعفون المستكبرين بأنهم سبب إضلالهم، لأنهم كانوا تابعين لهم؛ أي يتعللون بأنهم كانوا "عبد المأمور": "يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ"، يردّ المستكبرون مستنكرين عليهم ذلك، ومتهمين لهم بأنهم كانوا مجرمين مثلهم: "قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ."

وعندما يردّ المستضعفون مرة أخرى على المستكبرين: "بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا"، ندرك أنهم كانوا يتعللون بمكر الليل والنهار! يتعللون بالإعلام الذي ينشر الأكاذيب، ويزيّف الحقيقة بالليل والنهار، ويتعللون بالظلم الواقع في كل ساعة بالليل والنهار، ويتعللون بوقوع الفتن والمساومة في كل ساعة بالليل والنهار.

ولأنهم كانوا يقيدون الحريات، ويكممون الأفواه، ويقمعون الأحرار، كان الجزاء لهم من جنس عملهم: "وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟"

ثم يكشف التعقيب عن السبب الحقيقي لاستكبار المستكبرين: "وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ." فالسبب الحقيقي هو أنهم كانوا من المترفين، وكانوا يريدون الحفاظ على مكانتهم ومزاياهم، وكان المستضعفون يريدون نصيبا –ولو ضئيلا– من كل ذلك.

ويكشف ذلك الحوار عن استواء المستكبرين والمستضعفين في ظلمهم، فليس لأحدهم التعلل بالآخر، فالمستكبرون أعمتهم كبرياؤهم الزائفة، والمستضعفون دفنوا عقولهم، وتنازلوا عن كرامتهم وإنسانيتهم، وساروا كالبُله خلف المستكبرين.

بين موسى وعمر

المقاربة بين سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا عمر رضي الله عنه؛ أقرب إليهما من غيرهما؛ في قوتهما، وقيادتهما، في صدعهما بالحق، في رقتهما، وصفاء قلبيهما! في سموهما، وتواضعهما، وعبقريتهما، وكأنهما كانا روحا واحدة!

ولئن كان موسى عليه السلام كليم الله، فإن عمر رضي الله عنه هو المحدّث الملهم الشهيد، الذي قال فيه النبي: "لو كان بعدي نبيّ، لكان عمر بن الخطاب."

وكما أذلّ موسى عليه السلام فرعون وأهلكه، وحرر المستضعفين من بني إسرائيل، وجعلهم قادة بعد أن كانوا عبيدا، فإن عمر رضي الله عنه قد أذلّ كسرى وقيصر، وحرر شعوبهما، وأخرجها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فتحققت فيه نبوءة النبي: "ثم جاء عمر بن الخطاب، فاستحالت غربا، فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه، حتى روي الناس."

وكان كل منهما معروفا بالشدة في الحق. فقال موسى عليه السلام لفرعون: "وإني لأظنك يا فرعون مثبورا"، وقال عمر رضي الله عنه لأبي سفيان، بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية: "والله لو لم أجد إلا الذرّ، لقاتلتكم به."

ومثلما "رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا. قال بئسما خلفتموني من بعدي. أعجلتم أمر ربكم؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه،" فإن عمر رضي الله عليه، أخذ نفسه وأهل بيته بالشدّة، لا سيما بعد أن تولى الخلافة.

وكما بلغ من حب موسى عليه السلام لربّه أن "قال ربّ أرني أنظر إليك"، فإنّ عمر رضي الله عنه، بلغ من حبه للنبيّ أن قال للعباس: "أسلم يا عباس، فوالله لأن تسلم أحب إليّ من أن يسلم الخطاب."

وكان كلاهما مانعا للفتنة؛ فمثلما عبد قوم موسى عليه السلام العجل من بعده، فقد فُتح باب الفتن بعد عمر رضي الله عنه.

لقد عاشا شمسا مشرقة، تنير أرواح الأحرار، وتنصر المقهورين، وتحرر المستعبدين، وترتسم في نفوسهم، فتلهمهم معاني القوة والاستعلاء بالإيمان.

إنهم فتية آمنوا بربهم

قصة هؤلاء الفتية مثال لمراحل الإيمان في كل زمان ومكان.

فكانت أولى مراحل إيمانهم، أن أضاء الإيمان في قلوبهم، فكان بمثابة الشعلة التي غيرت وجهة حياتهم، وكان منهم القبول والاستسلام غير المشروط للإسلام. فهؤلاء الفتية "آمنوا بربهم"، ونبذوا ما كان عليه قومهم من شرك، وقبلوا الحق، وأذعنوا له، وأعلنوا عن إيمانهم دون تلعثم: "فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً،" فكان جزاؤهم أن زادهم الله هدى: "وَزِدْنَاهُمْ هُدًى."

وفي المرحلة التالية من مراحل الإيمان، تعرّض هؤلاء الفتية للفتنة والابتلاء وما فيه من كلفة ترك أوطانهم وبيوتهم، وفرارهم وخوفهم من بطش قومهم بهم، حتى إنهم أووا إلى الكهف، يدعون الله تعالى فيه بالنجاة بدينهم.

وفي المرحلة الأخيرة، حاز هؤلاء الفتية النصر الذي تجسد في صورة ربط الله على قلوبهم عند مقاساة المحنة والفتنة والابتلاء، وفي إيوائهم إلى الكهف، ليكون لهم حصنا حصينا من صلف الشرك وجبروته، وفي تخليد ذكراهم إلى يوم القيامة، دليلا إيمانيا على مواجهة الفتنة، ودليلا تربويا على يقين الشباب، ودليلا ماديا واضحا على البعث والنشور: "أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا."

وفي التعبير بجمع القلة عن هؤلاء –"فتية"–، إشارة إلى قلة المتجشمين لمقاساة البلاء والابتلاء في كل زمان ومكان. فهؤلاء الذين يضحون برغد العيش، والعيش الهنيء، في سبيل إيمانهم، قلة في كل زمان ومكان. وفي اجتماعهم داخل الكهف، رمزية لسلاح الجماعة في وجه الفتنة والابتلاء، وعوض عن ترك الأهل والوطن والبيت.

فكل إيمان، يُعرض على الابتلاء، فإما أن يكون مجرد ادعاء، أو يثبت ويصدق، فيتحقق النصر.

معركة العقيدة

إنها معركة قديمة، قِدَمَ الإسلام ذاته. يخوضها أمام قوى التسلط والطغيان على الصُعُد العالمية والإقليمية والمحلية. وهي ليست معركة السيف وحده، لكنّها معركة الوسائل كلها، والأسلحة كلها.

ولأن أول مقوّم من مقوّمات أية أمّة هو العقيدة، فإنها أول ما يستهدفه العدو، لأنه يريد تجريدها من أخص خصائصها، وأمضى أسلحتها. وكل من يسهم في تهوين هذه العقيدة، فإنه يساعد العدو على تحقيق هدفه.

ومن أهم أسلحة العدو: التدليس ولبس الحق بالباطل: "وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ.... يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ." ومن أسلحته كذلك زعزعة العقيدة في نفوس أصحابها؛ وقد كان يهود المدينة "يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا."

وفي هذه المعركة، يسعى العدو إلى نشر الأفكار المضللة عن ماهية العقيدة، فيصورها فكرة نظرية، لا ترتبط بواقع الحياة؛ فنرى الأفكار التي تقول: ما للدين والسياسة؟ ما للدين والاقتصاد؟ وكأن العقيدة لا تعيش إلا فكرة حبيسة في العقول، ومطبوعة على صفحات الكتب الصفراء والبيضاء!

ولتعزيز هذه الأفكار المزيفة عن طبيعة العقيدة، نرى احتفالا كبيرا بالطقوس والشعائر التعبدية التي لا تغير من واقع الحياة، بل قد تتعارض مع جوهر العقيدة، في الوقت الذي يُحارب فيه أي سعي حقيقي لتغيير واقع الناس إلى الأفضل.

ومن الأخطاء التي وقع فيها المسلمون، دراستهم للعقيدة دراسة تاريخية نظرية مجردة فقط، فنجد الاهتمام بمختلف الآراء التي تتعلق بالغيبيات، والأقوال المختلفة فيها، وبحث ودراسة آراء نظرية ليس لها صلة بواقع المسلمين ومشكلاتهم.

والحقيقة أن العقيدة تتعلق بشؤون الحياة كلها، وتتفاعل مع أحداثها وجوانبها كلها.

إخوة الصدق

هم أولئك الذين لا نحتاج معهم أن نسأل:

هل هم جديرون بثقتنا أم لا؟

هل يمكن أن يخذلونا في أحد الأيام؟

هل سيقفون إلى جوارنا اليوم، أم سيتخلون عنا غدا؟

إنهم أولئك الذين نعلم أن أيديهم سوف تكون هناك؛ ممدودة لنا دائما إذا أوشكنا على الغرق!

نوقن أنها سوف تنتشلنا من مستنقع اليأس والضيق والعجز.

إنهم يُظهرون أجمل ما فينا، ويمنحونا ثقتهم، وعاطفتهم، وأزرهم.

معهم نشعر أننا أفضل؛ ونرى فينا أشياء جديدة، أشياء جميلة، لم نكن نراها دونهم.

يشعرون بما نشعر، بل يحيون معنا فيه.

هم الذين يمنحون إذا منع الناس، ويشفقون إذا قسا الناس.

يقتربون إذا ابتعد الأقربون، ويؤنسون إذا جفا الأدنون.

يمنحون من شعورهم وقلوبهم وروحهم، وتتسع أفئدتهم لألم غيرهم.

يشعرون دون حديث، وينصتون دون طلب، ويبسمون من قلوبهم قبل ثغورهم.

يسعدون إذا وهبوا السعادة.

يعطون من قلّة، ويجودون وإن لم يجدوا إلا جهدهم.

من إعجاز قصة قارون

الإشارة إلى أنه "كان من قوم موسى"، فيها استحضار وإنذار لكل اليهود في كل زمان ومكان، ولا سيما يهود المدينة، لأنهم معروفون بالثراء وكنز الأموال، فلا يقفوا في طريق الرسالة الإسلامية، كما فعل قارون مع قومه من اليهود عندما "بغى عليهم".

وفيها تصوير لطبيعة اليهود الذين يكنزون الأموال، ويستمدون منها مصدر قوتهم على مرّ العصور!

وفيها استدعاء لنبي الله موسى ورسالته، وتوبيخ لقارون وأمثاله. فمع أنهم "من قوم موسى"، وهو من أكرم الرسل أولي العزم، إلا أنهم خانوا رسالته!

وتتجلى البلاغة القرآنية في إحدى أجمل صورها، حين يصف السياق كنوز قارون. فهذه الكنوز هي التي تنوء مفاتحها بالعصبة أولي القوة، وليست العصبة أولو القوة من الرجال الأشداء هي التي تنوء بالمفاتح. وإذا كانت تلك حال المفاتح، فكيف بالكنوز ذاتها؟

كما تصوّر البلاغة القرآنية ضعف منطق قارون وتهافته. فعندما يقول: "إنّما أوتيته على علم عندي"، أسند الفعل "أوتيته" للمجهول، مع أنه أكد الجملة في أولها بقوله "إنّما"، وادّعى في آخرها بقوله: "على علم عندي"! وفي ذلك بلاغة إعجازية تصوّر تناقض منطقه، عندما يسند ما آتاه الله تعالى إلى المجهول، ثم يدّعي بقوله: على علم عندي.

وإذا كان يدّعي العلم، فإن السياق القرآني يستخدم العلم ذاته في تجهيله وتسفيه حجته، فيستنكر عليه عدم العلم: "أولم يعلم أن قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا؟"

ويشعر القارئ بضآلة قارون مع ما كان يحوزه من كنوز وأموال وحرّاس، وما ارتكبه من كبر وكفران وبغي، عندما يستعرض السياق مصيره في جملة قصيرة وسريعة ومباغتة، لكنّها موحية وحاسمة: "فخسفنا به وبداره الأرض."

العبرة من بني إسرائيل

تناول القرآن الكريم قصص بني إسرائيل أكثر من غيرها. وفي ذلك تحذير وبيان لسير الأمم، وارتقائها ثم انحطاطها.

وكان الهدف من قصص بني إسرائيل في المرحلة المكية، هو تثبيت المؤمنين في مكة. أما في المدينة، فقد كان الهدف هو تحذير المؤمنين الذين عاشوا في المدينة مع اليهود، من صفات اليهود ومكرهم وحقدهم، وتحذير المؤمنين من بعدهم ألا ينحطوا مثلما انحط اليهود بعد أن فُضّلوا على العالمين. فالقرآن الكريم يقول لنا: لا تفعلوا مثلما فعل اليهود، ولا تتعرضوا للنقمة بعد النعمة، مثلما فعلوا.

فبعد أن أرسل تعالى لهم العدد العديد من الرسل، ونجاهم من فرعون، وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ورزقهم من الطيبات، تعنتوا وجحدوا وكفروا وقتلوا أنبياءهم.

والملاحظ أن انحرافهم قد وصل إلى أن فرض الله عليهم أن يقتلوا أنفسهم لكي يتوب عليهم! فهذه الطبيعة الناكرة القاسية، لا ينفع معها سوى ذلك التطهير الشديد! ومع ذلك، فقد طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة، ورفضوا قتال الأعداء معه، مع أن الله تعالى ظلل عليهم

الغمام في الصحراء القاحلة، وأظهر لهم الآيات والمعجزات، وأنزل عليهم المن والسلوى، فاستحقوا أخذ الصاعقة لهم، واستحقوا العذاب بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وإنزال الرجز عليهم من السماء، حتى كتب الله عليهم التيه أربعين سنة.

إن الذلّ الذي تعودوا عليه، وانتكاس فطرتهم الذي أصابتهم به العبودية في ظل حكم الفرعون، قد وصل بهم إلى ضرورة استئصال جيل كامل لم يكن ينفع معه علاج أو توجيه، وقد انتهى ذلك الجيل خلال التيه، حتى ظهر الجيل الجديد؛ جيل النصر الذي دخل الأرض المقدسة.

الصبر على الدنيا

عبادة الصبر من الشدّة أن زاد تكرارها في القرآن الكريم على 70 مرة، ومن الشدّة أن قال تعالى لأكرم خلقه: "واصبر وما صبرك إلا بالله." فهذا التكرار وهذا الاستثناء، يشيران إلى الثقل الثقيل للتبعات التي يعالجها الصبر، حتى استحق قوله تعالى: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب."

فالمؤمن في هذه الحياة يحتاج إلى الصبر عند وقوع النوازل، وعند تفلت الشهوات وبزوغ الشبهات، وعند فقدان الأمن، ومقاساة المحن، ومواجهة الظلم والقهر، وانتفاش الباطل، وتسلط البشر. ويحتاج إليه عند فقد برد اليقين، وتسلل الشك إلى الروح، والحسرة إلى القلب، وعند سكن الخوف واليأس محل الأمن والأمل.

ولأن الصبر مرهق ثقيل، ولأن الطريق وعر طويل، ولأن الزاد ينفد أو يكاد، فإن عدة الصبر: الصلاة، تخرج المؤمن من وهن الضعف البشري، إلى قوة الخالق الأزلي. وهي اللمسة الحانية، والنسمة المرهفة، تمسح العين الدامعة، والروح المرهقة، والقلب المكدود.

وعدة الصبر: حسن الظنّ، وقوة اليقين، وصحبة الصالحين، والارتكان إلى ركن ركين.

ويل للمطففين

قد يتبادر إلى الأذهان سؤال: لماذا الوعيد بالويل، مع أن التطفيف شيء طفيف؟

لكنّ المداومة على التطفيف، حتى استحقاق وصم "المطففين"، تشير إلى مدى الالتصاق بهذه الجريمة، ومدى قبولها كواقع عملي يفرض نفسه في دنيا الناس.

فمع أن التطفيف شيء ضئيل، إلا أن ارتباطه بالحقوق والمعاملة المباشرة، وبالسلوك العملي الذي قد يفتن الناس، ويرسخ رذيلة الغشّ كسلوك وواقع عملي يفرض ذاته، يعكس خطورته.

وورود ذلك السؤال الاستنكاري عن البعث مباشرة بعد وصف المطففين: "ألا يظنّ أولئك أنهم مبعوثون؟" يشير إلى أن الإيمان الصحيح، يجب أن يتجسد في صورة عمل صحيح، وأخلاق عملية، ولا يظل حبيس فكرة نظرية مجرّدة، لا واقع لها. ونقص ترجمة الإيمان بالبعث إلى عمل صحيح، يحفظ الحقوق ويمنع التطفيف، يعكس خللا في العقيدة.

ولأن ذلك التطفيف متكرر ومستمر، فقد ناسبه الحديث عن تكون الران على القلب، لأن الران ذنب متكرر ومستمر: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون."

ولأن عادة التطفيف استحكمت على مرتكبها، وكأنها سجن له، فقد ناسبها الحديث عن سجن أعمال الفجار: "كلا إن كتاب الفجار لفي سجين."

وفي السورة مقابلات أخّاذة، ترسم لوحة متناسقة، وتقرع جرسا رنيما:

اكتالوا – كالوا

يستوفون – يخسرون

الفجار – الأبرار

أجرموا – آمنوا

النور في سورة النور

كما اسمها؛ يضيء النور جنبات هذه السورة، ويشعّ هداية وصفاء وطهرا بين ثناياها.

فالله تعالى "نور السموات والأرض" يشرّع بنور هدايته الحدود، وينظم العلاقات، ويوجب الغضّ من البصر بين الرجل والمرأة، ويشرّع آداب الاستئذان والطعام، فتنعكس تلك الحدود والتشريعات والآداب، نورا في قلوب عباده المؤمنين، ونورا في حياتهم، ونورا في بيوتهم، ونورا في العلاقة بين الرجل والمرأة، ونورا في مجتمع الطهر المؤمن.

ويشعر المؤمن بقبس نوره تعالى يملأ عليه قلبه، عندما ينتقل السياق من الحديث عن "الله نور السموات والأرض" إلى "بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال." فتأتي المقاربة بين المشكاة وهذه المساجد، كما المقاربة بين المصباح داخل المشكاة وقلوب المؤمنين داخل المساجد. فكأن قلب المؤمن ينير، عندما يُعلّق بالمساجد، مثلما ينير المصباح عندما يُعلّق بالمشكاة، ويكون ممن يظلهم الله بظله: "ورجل قلبه معلّق بالمساجد."

وكما أحسسنا سنا النور في بيوت الله، وفي قلوب عباده المؤمنين، نرمقه في تسبيح "من في السموات والأرض والطير"، وفي إزجاء السحاب، وإنزال المطر، وتقليب الليل والنهار، وخلق الدواب على اختلاف أشكالها وهيئاتها؛ فهي عوالم وكواكب وأفلاك ومخلوقات، يختلجها ذلك

السنا في إحكام دقيق.

ومن سَمْق نور الإيمان وألْقه، يهوي السياق بنظر المؤمن إلى هوة الكفر وظلمته؛ فتتراءى صورة أعمال الكافرين سرابا خادعا، وظلمة لا تُرى اليد فيها من حُلكتها، فتستبشع روحه السراب بعد الحقيقة والظلمة بعد النور.

إنّ ذلك النور الهادي ليس طلسمات أو همهمات أو خيالات تخدع الموهومين، أو ترضي شغف الساذجين، لكنه تعاليم عملية واضحة، وعلاقات طاهرة تظهر إلى النور، ونظرات بريئة تأنف أن تشوبها شهوة إلا في حلال. ونور الهداية مع نور قلب المؤمن: نور على نور.

فأحسنوا الذبحة

إحسان عند ذبح حيوان؟

قد تدرك المدارك العادية أن هدف الإحسان إلى الحيوان، هو العيش دون ألم، وذلك مرتقى إنساني راقٍ. ولكن أن تحسن إليه، وهو يُساق للذبح، وليس بينه وبين الموت إلا ثوانٍ، فذلك مرتقى أرقى وأجلّ. مرتقى أسمى يرقّينا إليه نبينا الكريم، عندما ينهى عن حدّ الشفرة أمام الحيوان، كي لا يراها ويشعر بالخوف: "أتريد أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟"

إنّ الذي سأل هذا السؤال، هو الذي سأل الأعرابي الذي لا يقبّل أبناءه: "أوأملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟" فهو عليه السلام يسترذل سلوك الأعرابي، ويحرص على قلب المؤمن في كل لحظة وشأن!

فالإحسان ليس ترفا، لكنه سرّ كونيّ هائل في كل شيء: في السماء والأفلاك، في البحار والصحراء، في الأرض والنبات، وفي خلْق الإنسان. فيكفي النظر إلى زهرة صغيرة، لندرك معنى الإحسان، في خلقها، وبهجتها، وألوانها، ورحيقها، وملمسها!

ولم تشق البشرية شقوتها، إلا بعد نسيانها الإحسان في كل شأنها، فأحسنت في المادة، لكنها اتخذت من السلاح إلها، ولم تعرف مثل المال معبودا، فشقيت ثم شقيت، بالخراب والدمار، وبالحروب والأمراض.

وإن كان الإحسان كذلك مع الحيوان، فكيف بالإنسان؟

هل أباح الإسلام الرقّ؟

يطعن كثير من المشككين في الإسلام، ويقولون: كيف للإسلام الذي جاء لتحرير العباد أن يبيح الرقّ؟

ويتناسى هؤلاء أن الرقّ كان شائعا في الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، وفي العالم كله قبل الإسلام، ولم يكن يُنظر للعبيد كبشر، ولم يكن لهم أي حقوق أو قوانين توفر لهم أدنى حماية. وكان العبيد يعملون في حقول الأرز، مُصفدين في الأغلال، ومُعذَّبين تحت نير السياط، وإذا أراد السادة التسلية، أقاموا مباريات المصارعة بين العبيد، ليتسلوا بمشاهد القتل والدم المسفوح.

ثم جاء الإسلام ليجد العبودية واقعا مقررا؛ فلم يكن من المنطقي إلغاؤها، كيلا يأسر الأعداء من المسلمين عبيدا يستذلونهم ويستعبدونهم، على حين لا يستطيع المسلمون أسر الأعداء عبيدا لديهم، حتى يستبدلوا أسرى المسلمين بهم.

جاء الإسلام ليحرّم الاعتداء على العبد أو تكليفه فوق طاقته، ويقول: إن البشر جميعهم سواء: "بعضكم من بعض" ويوصي بالإحسان للعبيد: "وما ملكت أيمانكم." بل إن النبي الكريم أمر ألا نسميهم عبيدا: "لا يقل أحدكم: هذا عبدي وهذه أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي."

وقد عمد الإسلام إلى تحرير العبيد من خلال وسائل عدة، مثل: الصدقة، والزكاة، والعتق، والمكاتبة. والعديد من الآيات والأحاديث يحضّ على عتق العبيد، ويجعله تكفيرا لبعض الذنوب. وكان أغنياء المسلمين، وكذلك بيوت المال، على مرّ العصور، يرصدون الأموال للعتق. كما شرع الإسلام المكاتبة؛ فيحصل العبد على حريته مقابل مبلغ مالي، ولا يجوز إلغاء ذلك الاتفاق بعد العقد.

يقول جيمس ديفي في كتابه "البرتغال في إفريقيا": "حتى عام 1832، كانت تجارة العبيد تمثل 80% من مجموع تجارة أنجولا... سلبتها على الأقل 3 ملايين من شبابها، بيعوا بأسواق العبيد في الأمريكتين."

فأين ذلك من نور الإسلام؟

كيف نتأثر بالقرآن

لأن القرآن الكريم ليس كتاب حكمة نظرية باردة، ولأن آياته حيّة في طبيعتها، وفي أهدافها، وفي أسباب نزولها، ولأنه يستهدف إقامة واقع عمليّ، ومجتمع حركيّ، ويستهدف بناء العقيدة، وتصحيح الأفكار، وعلاج الأمراض، وتقويم السلوك، وصياغة المشاعر، فإن آياته الحيّة النابضة، كانت تتنزل عقب الأحوال، والمعارك، والمواقف العصيبة.

كانت الآيات تتنزل بعد أن تكون النفوس والمشاعر قد انصهرت تحت وطأة هذه الأحوال، والمعارك، والمواقف، فتشعر بالآيات القرآنية تتنزل واقعا مُشاهدا تعيش فيه، وتتشكل تلك النفوس وهذه المشاعر المنصهرة، وتتقولب وفق الأفكار والمفاهيم التي تغرسها هذه الآيات في تلك النفوس، فتثبت عليها، وتنطبع بها، صورة حيّة واقعية: "كان خلقه القرآن."

هذه الطبيعة الحية النابضة للآيات القرآنية، تتواءم أكثر ما تتواءم، مع واقع حيّ نابض، ومع نفوس منصهرة بالمواقف والشدائد، حتى يمكن أن تنعكس عليها وتشعر بها. أمّا إذا كانت النفوس باردة جامدة، وإذا كانت الأرواح خاملة متوانية، فإنها تستعصي على الانصهار والشعور.

وللتأثر بالقرآن، يعيش القارئ مواقفه، ويتجسّد شخوصه، ويخوض معاركه، ويواجه شدائده؛ فيعيش محنة إبراهيم فتى وحيدا، حين يُلقى في النار، ويخوض معارك بدر وأُحُد والأحزاب مع الثُّلة المؤمنة في المدينة، ويعيش مع موسى في رحلاته مع الخضر، ومعاركه مع فرعون وسحرته وجنوده، وجداله لقومه، ويعيش مع عيسى ونوح وأيوب وسليمان، وصحابة النبيّ الكرام.

وللتأثر بالقرآن، يقرأه المؤمن في جوف الليل، وعند الخوف، وفي النوازل والشدائد والمحن، وفي وجه الظالمين، بغية للنجاة، وتلمسا للهداية، وطلبا للمغفرة، واستنزالا للرحمة.

وتبسمك في وجه أخيك صدقة

هذا الحديث المُعجز، يُخرج الصدقة من المفهوم الماديّ الضيّق، إلى المفهوم المعنويّ الواسع، ويجعل منها شعورا نفسيا عميقا بالرغبة المخلصة في العطاء والإسعاد.

وفي هذا المعنى الواسع، استجاشة للنفس الإنسانية، وحثّ للرغبة الداخلية، على بذل كل معروف ممكن. فالصدقة لا تنحصر في العطاء الماديّ وحده، ولا تنحصر في المال وحده، لكنّها في أيسر شيء وأقربه. فالتسبيح صدقة، والأمر بالمعروف صدقة، والنهي عن المنكر صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وهداية الأعمى صدقة، وإغاثة اللهفان صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة.

ففضيلة الصدقة الأكبر ليست في العطاء وحده، وليست في المادة وحدها، لكنها في تحرّك ذلك الموج النفسي بالعطاء، وفي هذه الحركة الموّارة التي تدفع النفس إلى البذل، فتُرخي الأصابع الكزّة، وتَبسط اليد المغلولة، وتُفرج الشفاه المعقودة.

إنّها في نقل ذلك الشعور بالرغبة في الخير والإسعاد والإرفاد، من نفس إلى نفس، ومن روح إلى روح، ومن قلب إلى قلب، ومن إنسان إلى إنسان.

وهي بهذا المفهوم، حركة اجتماعية إيجابية مستمرة شاملة، لا تكفّ عن الحركة في كل مكان وزمان. وهي لون يرتسم على مناحي الحياة بأشكالها وتغايراتها واختلافاتها، فيتعلم المؤمن الإيجابية والحركة والشعور بغيره في كل شأن.

وهكذا لا ينقسم المجتمع إلى معطٍ وآخذ فقط، بل ينصهر في بوتقة واحدة، يستطيع فيها المجتمع كله أن يعطي ويأخذ، لأن الصدقة- في حقيقتها- لا تحتاج إلا لأدنى رغبة في الإسعاد. فليس المتصدق من يملك المال وحده! لكنّ المتصدق من يبذل أقلّ معروف، لأن تبسمك في وجه أخيك صدقة!

سورة الرعد علاج لمرض الإلحاد

يشعر القارئ باللهاث وراء إيقاع السورة المتسارع المتساوق مع المشاهد المرعدة المطيرة الصاعقة، ومع نواطق الكون وعجائبه، عبر جولة من الأدلة والمتقابلات الكونية الناطقة بالوحدانية؛ من رفع السموات، وتسخير الشمس والقمر، ومدّ الأرض، والجبال الرواسي، والأنهار والثمرات، وحمل كل أنثى، وتسبيح الرعد، وهطول المطر.

أفلا يدل ذلك الكون الناطق على ربّه؟

فهذا الحشد الناطق الهائل، ليس نظريات فلسفية مجردة، لا روح فيها، لكنه مشاهد حيّة ناطقة، مفعمة بالصوت والصورة والألوان والحركة، تحتشد جميعا في مشاهد متعاقبة ومتجاورة ناطقة، لتُنهض العقل الشارد من عثرته، وتوقظ القلب الساهي من غفوته.

ويكاد القارئ يسمع صوت الرعد يرعد في أذنيه، ويرى نور البرق يبرق بين عينيه، ويمتع ناظريه بتلك النباتات وألوانها، وهذه الثمار وأنواعها، ثم يخشى الصواعق، ويأمل في الماء يأتي بالخير بعد الموات، ثم يفكّر في تلك الأرحام وما تحمله من معجزات!

أفلا يدل ذلك الكون الناطق على ربّه؟

وتتواثب حواس القارئ بين متقابلات: الأرض والسماء، والشمس والقمر، والليل والنهار، والصنوان وغير الصنوان، والجبال الراسية والأنهار الجارية، والإسرار والجهر، والحق والباطل، والهداية والضلال، والسيئة والحسنة، والغيب والشهادة، والنفع والضر، والظلمات والنور، والجنة والنار، وبسط الرزق وتقديره، والدنيا والآخرة، والذين آمنوا والذين كفروا: "إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون."

ولأنّ المنطق الذي يجادل به الملحدون في هذا العصر وكل عصر، هو المنطق ذاته، فإنّ ذلك الحشد من المعجزات، يثبت أن القضية ليست قضية معجزات حسية، لكنها قضية تكبّر وصلف وعناد! ولأنّ قلوب الملحدين جافية متصلدة، فإنها لا تطمئن! ولو فتح هؤلاء قلوبهم وعقولهم إلى آيات الكون، لاطمأنت واهتدت إلى خالقها. ألا بذكر الله تطمئن القلوب!

معنى إن الدين عند الله الإسلام

هكذا هو منذ بدء الخليقة، وهو دين كل الأنبياء، وليس لله دين سواه!

وهذا الدين الذي لا يقبل الله غيره، ليس مجرد فكرة نظرية أو خاطرة مبهمة في القلب. لكنه الاستسلام لأمر الله، وتحكيمه في شؤون الحياة، والإذعان لهذا الأمر، حتى لو لم يمتثل المؤمن له.

وقد استنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب إعراضهم عن ذلك الاستسلام: "أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ".

يقول ابن القيم في كتاب "زاد المعاد في هدي خير العباد":

"ومن تأمّل في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له صلى الله عليه وسلم بالرسالة، وأنه صادق فلم تُدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرا وباطنا."

فمن البداهة العقلية فضلا عن الشرعية، أن تدبير شؤون الحياة، وتحديد المعايير والمبادئ، والخير والشرّ، والفضيلة والرذيلة، لا يُعقل أن يكون لغير الله الذي خلق الإنسان: "ألا له الخلق والأمر". فبما أنه سبحانه هو الذي خلق، فهو الذي يأمر وحده. ولا يُعقل أن يكون لغير الله حق تأسيس القيم والأفكار التي يخضع لها الإنسان؛ ذلك المخلوق الضعيف في هذا الكون الكبير!

ولذا، لا يصح حبّ الله بمجرد دعوى القلب، أو ادعاء اللسان، أو بشعائر صورية، أو مشاعر خفية، لكنه يستلزم دليلا عمليا؛ هو اقتفاء تعاليم الرسالة، ومتابعة النبيّ: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول. فإن تولوا، فإن الله لا يحب الكافرين."

معركة النفْس قبل معركة السيف

يلحظ المتتبع للسرد القرآني لمعركة أحد، معركة نفْس، يتسع مجالها عن مجال معركة السيف. فإذا كانت معركة السيف معركة العصبة المؤمنة من الصحابة الكرام، فإنّ معركة النفْس معركة المؤمنين في كل حين.

وتلوح معركة النفْس مع أول آية في سرد المعركة: "والله سميع عليم." فهو تعالى سميع عليم بهمس النفوس. ثم يهزّ السياق النفوس هزّا، ويفاجئها بما لم تتحسب له، وبعلمه تعالى بمجرّد الهمّ الذي خالط ضمائرها، وبخبيئة مكنونها: "إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا!" ومن ثمّ، يوجه تعالى نفوس المؤمنين: "وعلى الله فليتوكل المؤمنون."

ثم يرد التذكير بنصر بدر: "ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة"، ليحثّ النفوس على النظر إلى الحالين، والتأمّل في المآلين. ويأتي التقرير القاطع في تلك اللحظات الملتهبة التي شهدت المصيبة واستشهاد سبعين، ليطبع هذه النفوس، بهذه الحقيقة الثابتة: "وما النصر إلا من عند الله"، حتى تظلّ منطبعة وراسخة في هذه النفوس، فلا تنساها أبدا!

وهدف النصر ليس مغنمه أو زهوته، ولكن "ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم"، لأنه "ليس لك من الأمر شيء"، ولأنه سبحانه "يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء." فنتيجة المعركة، والنصر أو الهزيمة، له وحده.

ثم تتوالى آيات مهيبة؛ تقود معركة رعيبة، مجالها تربية النفْس وتقويم السلوك، وكأنّها مطارق تقرع النفوس الملتهبة من لهيب المعركة واتقادها وجراحها وقتلاها، لكي تصوغ هذه النفوس المثخنة لتوّها: فتنهى عن الربا، وتحثّ على الطاعة، واتقاء النار، والمسارعة للمغفرة، والإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو، وذكر الله، والاستغفار.

وبعد آيات التربية والسلوك وخطاب النفوس، وصهرها بالموعظة البالغة، تأتي آيات الحكمة، وبيان سنن الله في الأنفس والآفاق، لكي تبرد تلك النفوس بعد انصهارها، وتتشكل وتتقولب وفق الصورة اللائقة بالمؤمنين!

لماذا كنّا خير أمّة؟

التعبير بالفعل "كنتم" يدلّ على أن خيرية الأمة لازم من أهم لوازمها، وواجب من أسمى واجباتها! وهذه الأمّة لم تَخرجْ، لكنها "أُخرجَتْ"، وأُنزلت عليها الرسالة الخاتمة إلى البشرية. إنها ليست مثل الأمم الأخرى، إذ هي حاملة الرسالة الخاتمة! وهي لم تُخرج لذاتها، لكنها أُخرجت "للناس"، لتقودهم، وتوجههم، ولكي تؤدي رسالتها تجاههم!

وخيرية الأمّة لا تعني أنها أفضل من غيرها من الأمم في كل شيء! فقد يكون غيرها أفضلَ منها قوة، أو علما، أو عددا، أو سبقا، لكنّ هذه الأمة خير الأمم لغيرها. فالأفضلية لا تعني الخيرية! فليس كلُّ أفضلَ أخْيَرَ، وليس الأخْيَرُ أفضلَ دائما!

أُخرجت هذه الأمة لتكون في الطليعة، ولتقود زمام البشرية، وتوجهها الوجهة الأخيرة، بالرسالة الأخيرة! لقد أُخرجت لتكون سابقة في الأخلاق، وفي العلم، وفي الاقتصاد والاجتماع والابتكار، كما في الصدق والأمانة والوفاء!

وأبرز لوازم هذه الخيرية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! وإذا كانت الأمم الأخرى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتلزم ما تشرع من قوانين وفق إرادتها، فإن هذه الأمّة تأمر

بالمعروف وتنهى عن المنكر، وفق إرادة الله، لأنها أمّة "تؤمنون بالله". فهي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا وفق إرادة شخص أو أشخاص، أو قانون أو قوانين، أو فكرة أو أفكار، ولكن وفق أمر الله.

وهذه الخيرية ليست مقتضى جنسية أو عرق أو لون، ولا تكون بالدعاوى الكاذبة، أو الأمانيّ الفارغة، أو الشعارات الجوفاء، ولكنْ لكي تحقق الأمّة هذه الخيرية، فعليها قيادة غيرها من الأمم، وعليها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفق رسالة الله، وعليها حيازة القوة التي تمكّنها من تلك القيادة، وذلك الأمر، وهذا النهي.

قل هو من عند أنفسكم

لماذا لا ننتصر نحن المسلمون في كل معاركنا؟ ألسنا أولى بالنصر ممن احتلوا أرضنا ومقدساتنا؟

قد يُسائل المؤمن نفسه هذه الأسئلة عند حلول الهزائم! والأجدر بالمؤمن أن يَسأل مثلما سأل الصحابة بعد معركة أحد: "أنّى هذا؟" فمخالفة الرماة لأمر نبينا الكريم، لم تكن حادثة فردية، وقعت وانتهت، لكنّها درس لكل جيل. والجواب: "قل هو من عند أنفسكم."

فبعض الناس يتوهم انتصار الحق على الباطل لمجرد أننا مسلمون فقط! لكنّ الحقّ ينتصر وفق سنن الله الكونية، وشريطة جهاد أصحابه لتحقيقه! فلو شاء الله لانتصر للحق دون حاجة إلى جهاد المؤمنين! لكنّ سنة الله وحكمته تقتضي تدافع الحق والباطل، ليلقى كل فريق جزاءه بما عمل!

ومن حكمة ذلك التدافع بين الحق والباطل: تباين وتمايز صفوف المؤمنين عن صفوف المنافقين؛ لأنه "ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب"،

حتى إن التعبير القرآني خالف بين المؤمنين والمنافقين والكافرين في صيغ وصفهم؛ فقال: و"ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين"، "وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا"، ولم يقل: وليعلم المنافقين! والعلم هنا، يعني التمييز والإظهار.

ولو كان النصر مضمونا لمن زعم الإيمان، دون جهاد، لَزَعمه كل أحد! ولَتساوى المؤمن والمنافق، لكنّ صدق الإيمان لا يتحقق إلا بعد اختبار وتمحيص، وبعد مدافعة الباطل، واحتمال أذاه، ومجاهدة أهله، ومكابدة سطوته!

ومن حكمة ذلك التدافع بين الحق والباطل: تربية المؤمنين، وتزكيتهم، وعلاج أخطائهم: "إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا"، حتى يصلوا إلى درجة: "وكأيّ من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا. والله يحب الصابرين."

حكمة القدَر في سورة يوسف

تتجلى حكمة القدَر ولمساته في هذه السورة الباهرة، إذ تنطق قائلة: إن كان يوسف قد اطلع عليّ بالرؤيا، فإنه لا يراني كل أحد مثلما رآني يوسف! فليطمئنّ كلٌ منكم إلى حكمة قدره!

فعندما رأى يوسف الكواكب والشمس والقمر، لم يقل "رأيتها"، لكنه قال "رأيتهم"، فاطمأنّ عليه السلام إلى حكمة قدره، وأنه تعالى سوف يُسجد له أناسا شاخصين على الحقيقة!

وتلوح حكمة القدر التي تحوط يوسف بلمساتها الحانية، في اتجاه القافلة التي وجدت يوسف، إلى مصر، وليس إلى بلد آخر، وفي حاجة عزيز مصر إلى الولد. فكأنّ القدر يقول لنا: إنّ الحوادث التي تبدو عادية، قد تكون حوادث لها ما بعدها، إن أراد القدر، لأن ذلك الاتجاه العاديّ، وتلك الحاجة العاديّة، كانا بداية التمكين ليوسف في الأرض!

ثم تتجلى يد القدر القاهرة في تكرار رؤيا الملك، حيث قال "أرى"، ولم يقل "رأيت" كيوسف في مطلع السورة، حتى يلحّ عليه طلب تفسيرها. وكيف كان سيعلم الملك تلك المزايا التي يتحلى بها يوسف لو لم ير هذه الرؤيا؟ وكيف كان سيعلم الملك حقيقة يوسف، لولا دخول الفتيين

السجن مع يوسف؟ كما تظهر حكمة القدر في نسيان الفتى لقضية يوسف، وعدم إخباره بها، حتى يرى الملك رؤيته، فيتذكر الفتى ما يتحلى به يوسف من تعبير الرؤى، فيخبر الملك بأمره.

كما تظهر حكمة القدر في أنّ المنح التي نالها يوسف بعد "السجن"، كانت أكبر مما ناله بعد "قصر العزيز"، وفي إصابة الجدب بلد يعقوب وبنيه، حتى يذهبوا طالبين الميرة من مصر، ليقابلوا يوسف.

فحكمة القدر تتجلى في هذه السورة في أجمل صورة، وتعلّمنا أنها غالبة، وأن الخط الذي يرسمه القدر، يفوق دائما فكر البشر.

دخل طفلُه الذي لم يجاوز عامه الأول إلى المستشفى، وبعد عدة أيام من امتناع الطفل عن أي طعام أو شراب، وبعد أن أصبح الطفل الذي تنير البسمة وجهه، كالوردة الذابلة التي توشك على الموت، قال الأطباء: إنّه قد أصيب بمرض خطر، وهو في مرحلة متأخرة للغاية، وليس هناك أي أمل في نجاته من الموت المحقق، وإنّ أيامه قد أصبحت معدودة، ومن الأفضل أن يعود إلى بلده حتى يُتوفى فيه.

طرح كلام الأطباء وراء ظهره، ولم يستسلم للحسابات البشرية، ثم دخل إلى المسجد وحده. كان المسجد خاليا إلا منه ومن الملائكة التي يشعر بها حوله، وإلا من ذلك النور الأوحد الذي لا يشعر بنورٍ غيره يستضيء به من ربه في تلك اللحظات الحوالك الكؤود. وقد بدأ في الدعاء، مضطرا ولاجئا إلى ربه، حتى بكى بكاء من غُلب على أمره، ولم يجد إلا ربه لكي يلجأ إليه. وكان معتادا على إجابة ربه لدعائه، ولا يعلم موقفا لجأ فيه إلى ربه بالدعاء متضرعا، ولم يستجب ربُّه له!

وما إن هبطت الطائرة عائدة إلى بلده، حتى أخذ الطفل من المطار إلى المستشفى مباشرة، وما هي إلا لحظات، حتى أجريت عملية للطفل، نجا الطفل على إثرها من مصيره المنتظر، وهو

الذي كان قد أوشك على الموت قبل ساعات معدودة، ويئس الأطباء من شفائه، بفضل التضرع والدعاء والالتجاء إلى الله وحده.

فأنت إذا دعوت الله تعالى ولجأت إليه مضطرا؛ أي قد عدمت كل الحيل والأسباب، وفعلت كل ما تستطيعه، ولم يكن بمقدورك شيء آخر سوى الدعاء والالتجاء إليه تعالى وحده، فلا تسأل عن الإجابة، لأنها قد تحققت!

قصة حقيقية، ودرس عملي واقعي في الدعاء.

ورحمتي وسعت كل شيء

لأن رحمته تعالى وسعت كل شيء، وكتبها على نفسه، وسمّى بها نفسه، كانت أكثر كلمة يرددها المؤمن في صلاته وسلامه، وكانت أول كلمة من الله لآدم: "لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، عَطَسَ، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ. فَحَمِدَ اللهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللهُ يَا آدَمُ." (أخرجه البخاري ومسلم). والرحمة هنا: تقرير، وحُكم، وقَدَر، ونعمة منه تعالى.

وإذا نزلت تلك الرحمة، لم يُمسكها مرض، أو فقر، أو سجن، أو قتل، ولم تمسكها قوة زائلة! فهي تحيل المرض إلى رضا، والضعف إلى قوة، والفقر إلى غنى، والخوف إلى أمن، والسجن إلى حرية، والقيد إلى وسام!

فلا ممسك لها!

ولأنّ المؤمن يرى الكون كله مظاهر تلك الرحمة، ويرى خَلْقه رحمة، وحواسه ومداركه وقَدَر ربه رحمة، وكل نعم الله في الأنفس والآفاق رحمة، فحين تجتمع عليه الخطوب والنوازل، ويجتمع

عليه فقد الأحبة، والمرض، والسجن، والفقر، تدركه رحمة ربه، فيشعر ببرد اليقين، وحكمة الابتلاء، واحتساب الثواب، فتستحيل تلك البلايا كلها إلى نعم، ولو كان ظاهرها النقم!

وقد أدركت هذه الرحمة آدم عندما نسي، فتاب الله عليه، وأدركت إبراهيم في النار، فكانت بردا وسلاما، وأدركت موسى، فنصره الله بين يدي فرعون، وأدركت أيوب، فشفي بعد مرض السنين، وأدركت يوسف فانتقل من السجن إلى القصر، ومن التهمة إلى البراءة، وأدركت أصحاب الكهف، فقالوا: "فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته!"

ولأنّ هذه الرحمة وسعت الكون الهائل على اتساعه، ولأنّ هذه الرحمة لا ممسك لها إلا الله، فإنّ المؤمن لا يرجو ولا يخشى إلا ربّه، ولو أغلقت الأبواب كلها، أو تقطعت السبل كلها، إلا سبيل ربّه.

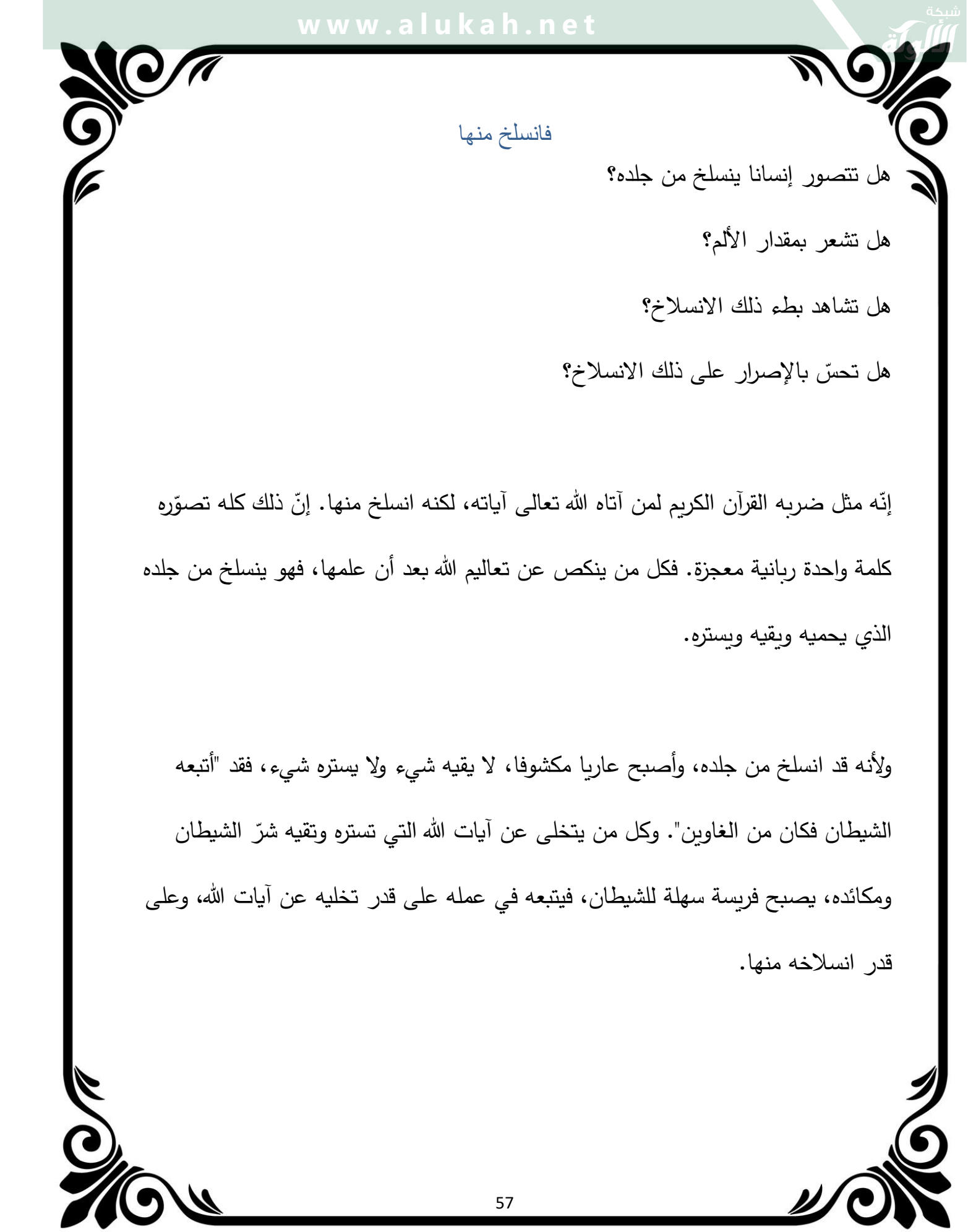

فانسلخ منها

هل تتصور إنسانا ينسلخ من جلده؟

هل تشعر بمقدار الألم؟

هل تشاهد بطء ذلك الانسلاخ؟

هل تحسّ بالإصرار على ذلك الانسلاخ؟

إنّه مثل ضربه القرآن الكريم لمن آتاه الله تعالى آياته، لكنه انسلخ منها. إنّ ذلك كله تصوّره كلمة واحدة ربانية معجزة. فكل من ينكص عن تعاليم الله بعد أن علمها، فهو ينسلخ من جلده الذي يحميه ويقيه ويستره.

ولأنه قد انسلخ من جلده، وأصبح عاريا مكشوفا، لا يقيه شيء ولا يستره شيء، فقد "أتبعه الشيطان فكان من الغاوين". وكل من يتخلى عن آيات الله التي تستره وتقيه شرّ الشيطان ومكائده، يصبح فريسة سهلة للشيطان، فيتبعه في عمله على قدر تخليه عن آيات الله، وعلى قدر انسلاخه منها.

ومن ينسلخ عن جلده، يصبح خاوي الشعور، متبلد الإحساس، فاقد الوعي، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، فقدْ فقدَ وسيلة إحساسه وشعوره، وفقدَ تلك الحاسة التي تنبهه إلى الخطر، فيقع فيه دون أن يشعر أنه يقع، ويقتحم المخاطر وهو لا يحس سوءة ما يقتحم، ويورد نفسه المهالك وهو لا يدري، لأنه فاقد للشعور.

ولأنّ الباعث على ذلك الانسلاخ، هو اللهاث وراء الدنيا، جاء التشبيه بالكلب الذي يلهث في كل أحواله! إنّه لا يكفّ عن اللهاث، سواء تركته أو حملت عليه، فإنه يلهث ولا ينقطع عن اللهاث. وكذلك، فإنّ من ينسلخ من آيات الله، لا يشبعه شيء، ولا يروي ظمأه شيء، سواء حصل على ما يلهث وراءه أو لم يحصل عليه؛ فهو لاهث في كل حال.

مسجد الضرار

بنى المنافقون مسجد الضرار إلى جوار مسجد قباء، وتعللوا بأنهم إنما بنوه للضعفاء في الشتاء، وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه، حتى يكون ذلك إقرارا منه وقبولا لمسجدهم. لكنّ الله تعالى عصمه من الصلاة فيه، ونزلت آيات سورة التوبة تفضحهم وتكشف سوء قصدهم، وتنهى النبي الكريم عن أن يصلي في هذا المسجد أبدا، مع أن الصلاة في ذاتها ركن من أركان الإسلام!

ومساجد الضرار اليوم، ليست مجرد مسجد واحد، لكنها أحزاب وقنوات وجماعات وصحف ودعاة مزيفون، يتظاهرون بأنهم يعملون لصالح الإسلام، لكنّ الحقيقة هي أنهم يعملون على هدم الإسلام من داخله، ويحلّون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله! فيؤيدون إهانة الإسلام بدعوى حرية الرأي، ويؤيدون التطبيع مع الصهاينة، ويؤيدون قتل وسجن الأبرياء، ويستنكرون مقاطعة الدول التي تسبّ الإسلام، ويهاجمون المجاهدين الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الله، ويصفونهم بأنهم متطرفون وإرهابيون، وبأنهم يتبعون ما أسموه ظلما وافتراء على الإسلام، باسم: "الإسلام السياسي".

أحد هؤلاء الدعاة الخونة يحرف حديث الرسول الكريم، ويدعي أنه صلى الله عليه وسلم يساوي بين المسلم واليهودي، ويتهم الفلسطينيين بأنهم يصافحون اليهود في الخفاء، ويهينونهم في العلن، وأن من يريد الحرب فيلذهب إلى الحرب، وأن الصهاينة أشرف من الفلسطينيين، وآخر يقول: إنه يثق في القيادة السياسية لبلد التطبيع، وآخر يمهد للتطبيع بحديث مضلل عن التعاون مع اليهود!

هؤلاء يجب فضحهم كما فضحتهم سورة التوبة التي سميت بالفاضحة، ويجب كشفهم كما كشف القرآن الكريم مسجد الضرار!

المعركة الكبرى

معركة يحتدم أوارها منذ الأزل حتى فناء البشر، فيسلو أحد طرفيها، وهو ضحية عدوه الذي لا يغفل عنه طرفة عين، بل يتربص به كل حين، ويستشرفه في كل آن! وطريق المعركة مرسومة، ومعالمها واضحة، وقد خُطت لها نقطة البداية، وحُددت لها كذلك نقطة النهاية. وساحة المعركة مكشوفة، وأسلحتها كذلك! تبدأ منذ اللحظة الأولى لولادة الإنسان، ونخسة الشيطان، ولا تنتهي إلا بموته! وميادينها كذلك شاملة؛ تشمل كل الأصعدة! قلب الإنسان، وفكره، ومشاعره، وأحاسيسه، وأعماله، وجوارحه! تدور رحى المعركة بين شيطان جاهر بعداوته وغائلته، وبارز بخصومته وإحنته، منذ اللحظة الأولى، دون خجل، أو ندم، أو مواربة؛ وبين إنسان أبرز سماته: الضعف أمام ذلك العدو الذي يتلبس به، وأمام نفسه التي تسول له، وتستغويه، وتفتنه، إلا أن يكون له شعاع نور يستضيء به في دهمته. ومن عجب، أن نزالات هذه المعركة، وفصول هذه القصة، مكرورة بتكرار الأزمنة والأمكنة. فالإغواء، والإلهاء، والتخييل، والتزيين، والكذب، والتدليس، قصص وأسلحة معروفة؛ غير خافية.

ومع تحذير القرآن المتتابع والمتوالي من هذه المعركة، وتقريره بأنها معركة حياة الإنسان، ومعركة الخلق، والبشرية كلها، يقع الإنسان ضحية لها، بين صريع وجريح!

وكما هي معركة بين الشيطان والإنسان، فهي معركة كذلك بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والعدل والظلم، والهداية والغواية، والإيمان والكفر، والتوبة والخطيئة، والسعادة والشقاوة! ويحمل رايات الحق في هذه المعركة، أولئك الرسل والأنبياء، الذين يقودون زمام البشرية، مع استعصائها عليهم، ويحمل رايات الباطل كذلك، رموز الظلم والطمع والطغيان، في كل زمان ومكان! وغفلة الإنسان عن بداهة هذه المعركة، ووضوحها، وأزليتها، وشمولها، وعمقها، وخطرها، قد تكلفه أبعد مما قد يقترب من الإحاطة به، أو الانتباه له؛ وقد تكلفه علاقته بأقرب المقربين إليه، وأخلص الناصحين له، كما قد تكلفه نفسه ومصيره! ووضوح هذه المعركة، ومعالمها، وجنودها، وأدواتها، وأسلحتها، جدير بأن يضع أموراً في نصابها، وأن يظهر لنا حقيقة الخلافات والشجارات التي تفسد علينا علاقاتنا وأعمالنا.

ووضوح هذه المعركة، يظهر لنا دوافع الشرّ التي يحرّكها الشيطان، ويُزْكي شعلتها في النفوس، فتثور دون حق، أو تتوهم بباطل. وهذا الوضوح يسم كذلك عقل الإنسان وفكره، بما وراء الأسباب الظاهرة، والمواقف البادية، فيتروى في حكمه، وينظر بثاقب فكره، ويستلهم رشد رأيه.

ويصبر على أذاهم

لم يعد يفجأه شيء! ولم يعد يسمح لخذلان الخاذلين، أو تثبيط المثبطين، أو صدود المحبطين، بأن يعكر صفو حلمه الجميل، أو يقطع حبل أمله البعيد!

عندما كان يلعب الكرة صغيرا، كان والده الذي يرقبه بحسه المرهف، وينظر إليه بعين الزمن البعيد، يلحظ أنه أكثر الأولاد ركضاً، وأكثرهم حرصاً، فيسأله وكأنّه يحذّره من وهج العاطفة، أو فرط الثقة، أو قابل الأيام: ألا تلتقط أنفاسك؟ لم كل هذا؟ لم لا تستريح قليلا مثلهم؟

لقد أصبح أكثر معرفة بعيوبه، وصراحة مع نفسه، وأكثر وعيا بقراءتها، وأصبحت نفسه أكثر وضوحا معه: إنه مسرف الإحساس، جارف العاطفة، جيّاش الشعور، صادق المُهجة، يأخذ العلاقات بمحمل جدّ، قد يعتبره كثيرون تنازلا، أو سذاجة مفرطة، أو فرصة للاستغلال. إنه يرسم من خياله الذي يتمناه، واقعا يريد العيش فيه، ولا يريد أن يواجه حقيقة أنه مجرّد خيال غير صحيح، غير مُعاش، غير ملموس، إلا في ذلك الخيال. نعم، إنه واهم، والخيال أوهام!

لقد أصبح أكثر فهما للحديث النبوي الشريف: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم." فكم يتسع معنى كلمة الأذى؟ وكم يمتد عموم كلمة الناس؟ وكم يحتاج الصبر من معاناة؟

إنه يحتسب ما دام قادرا على الصبر والمكابدة! فإن لم يعد للصبر معنى، ولمكابدة الناس فائدة، ففيم يُحزن فؤاده، أو يُعنت نفسه؟ فنفسه التي بين جنبيه أولى ألا يقتلها حرصا على من لا يحرص عليه، ولا يتردد في إيذائه، أو يتورع عن تكدير حياته.

إنّ الصبر على الأذى، لا يعني حطم الإنسان نفسه، أو منح قدْر غير مستَحق لمن لا يستحق.

إبراهيم أبي

دائما أحببته وشعرت أنه أبي. فإذا قرأت عنه، شعرت أنني معه، أقف معه، وأحطم الأصنام معه.

إنه أبي.

ذلك الذي كان أمّة وحده. كان يحمل التوحيد وحده، ويدعو قومه وحده، ويحطم الأصنام وحده، ويُلقى في النار وحده.

كان يواجه أقرب المقربين إليه؛ أباه وقومه. وكان يجادلهم ويستدرج عقولهم الساذجة وقلوبهم الغافلة، لكي تنطق بحقيقة التوحيد. كان يفتح آذانا صمّا وعيونا عميا على رسالة السماء.

إنه يقول لنا: لا تيأسوا مهما كان أقرب المقربين إليكم على غير التوحيد، لا تيأسوا ولو تنكر لكم أقرب المقربين، لا تيأسوا ولو واجهتم قلوبا منطمسة، وعقولا منكفئة، لا تيأسوا ولو رأيتم الناس يتساقطون من حولكم بعيدا عن التوحيد إلى هوة العلمانية وتشويه الإسلام وطمس معالمه، لا تيأسوا ولو رأيتم عقولا تحارب الإسلام وهي واعية، وهي من أهله، وهي تقرأ القرآن.

كان أمّة وحده! إنه أبي!

كان شجاعا ينطق في صراحة: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. كان شجاعا لا يخاف: وتالله لأكيدن أصنامكم.

لم يكن ليسكت عن الحق! لم يكن يسكن ويستذل للباطل في سبيل علاقات اجتماعية، أو منافع دنيوية. كان قدوة لنا نحن المسلمين.

كان يقف في ثبات مجادلا قومه، ساخرا من تفاهة عقولهم، غير منكر لتحطيم أصنامهم، ليلقي في وجوههم الدميمة، وعلى عقولهم البليدة، قذيفة مدوية، تهدم غباء منطقهم وسماجة فكرهم: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون... أف لكم ولما تعبدون من دون الله. أفلا تعقلون؟

كان مثالا للشجاعة في الحق، حتى ألقوه في النار. إنه عليه السلام يقول لنا: سحقا للجبناء، الذين يداهنون الباطل ويدافعون عنه، سحقا للخونة الذين يخضعون للعلمانية وسطوتها، ولا يشعرون بالغيرة على هذا الدين.

إنه أبي!

علّمني زكريا

علّمني عليه السلام أن الدعاء السماوي الخافت من قلب صادق مفعم باليقين، هو الأحرى بالإجابة، ولا يقف أمامه شيء، وتُفتح دونه أبواب السماء: "إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً."

وعلّمني أن طرح المؤمن مخاوفه على بساط التضرع إلى ربه، وتبتله وافتقاره إليه، وانكساره بين يديه، من كمال الإيمان، وأنه أفضل ما يكون بين يدي الدعاء: "قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً."

وعلّمني أن لا مستحيل مع الدعاء، فلندع الله تعالى، ولو لم نملك الأسباب: "فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً."

وعلّمني أن الشكر يزيد النعم: "وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً."

وعلّمني أن الله تعالى إذا أكرم عبده المؤمن، فهو يعطي، فلا يشبه عطاؤه عطاء أحد: "لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً."

وعلّمني أن إرادة الله تعالى لا يقف أمامها شيء: "هو عليّ هين"، وأن جدار المستحيل ينهدم أمام قدر الله: "وكان أمرا مقضيا."

وعلّمني أن سلاح المؤمن دعاؤه الذي لا غنى عنه: "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ"، وأن التسبيح زاده الذي يعيش عليه: "أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً."

وعلّمني أن طريق المؤمن هو التمسك بكتابه: "يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ"، وأن من تمام النعمة أن يؤتى المؤمن الحكمة منذ مطلع حياته: "وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً."

وعلّمني أن الحنان والزكاة والتقوى وبر الوالدين، من صفات المخلصين والقادة العظام، وأن القوة الحقة فيها، وليست في التجبر والتسلط وتكلف قوة الشخصية الموهومة الجوفاء التي تستمد قوتها الزائفة من تسفيه الآخرين والسخرية منهم، وأنها أعظم ما تكون عندما تكون سجايا فطرية: "وَحَنَانَاً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً."

علمني زكريا أن القرآن الكريم أعظم كنز في الوجود بين يدي المؤمنين.

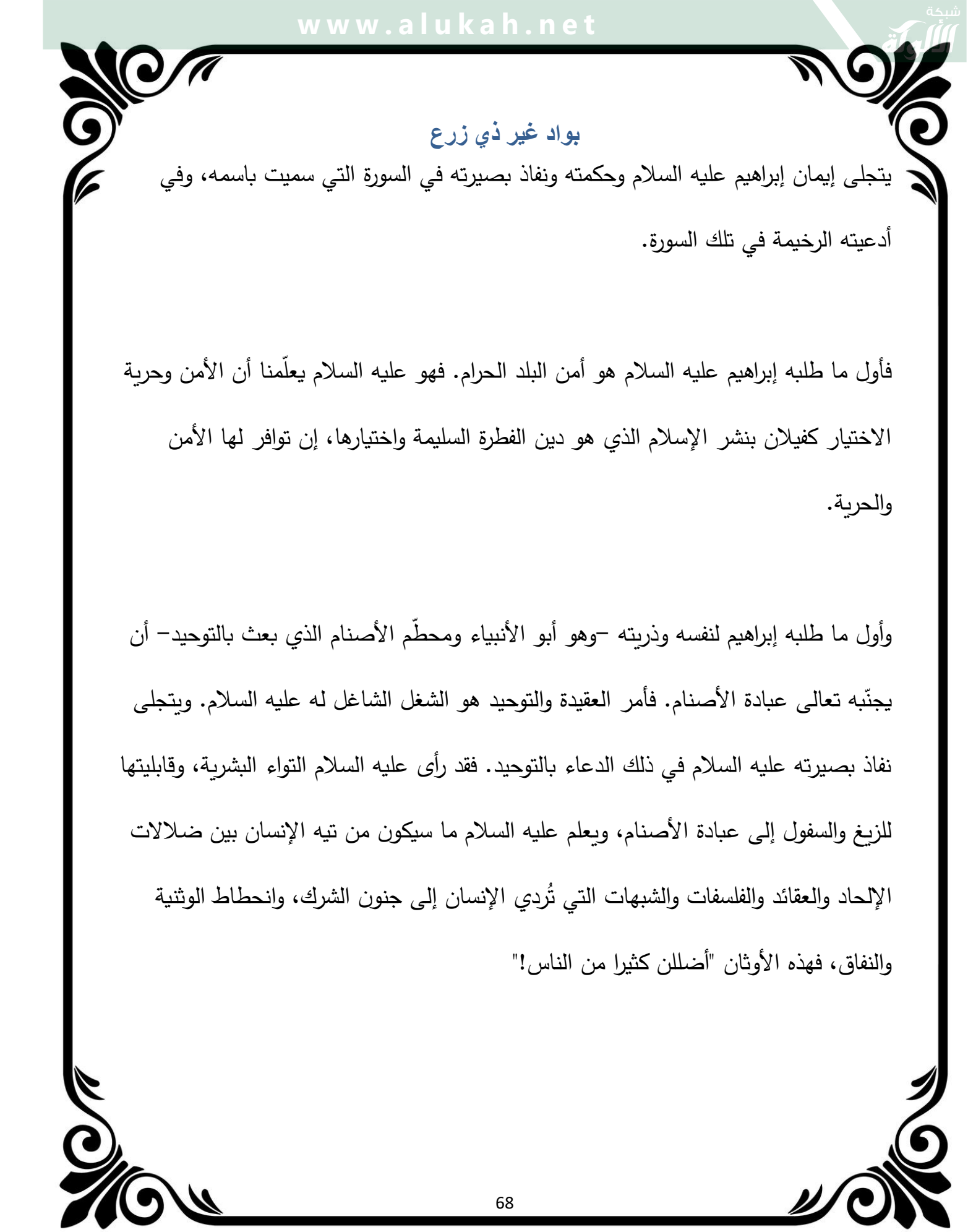

بواد غير ذي زرع

يتجلى إيمان إبراهيم عليه السلام وحكمته ونفاذ بصيرته في السورة التي سميت باسمه، وفي أدعيته الرخيمة في تلك السورة.

فأول ما طلبه إبراهيم عليه السلام هو أمن البلد الحرام. فهو عليه السلام يعلّمنا أن الأمن وحرية الاختيار كفيلان بنشر الإسلام الذي هو دين الفطرة السليمة واختيارها، إن توافر لها الأمن والحرية.

وأول ما طلبه إبراهيم لنفسه وذريته –وهو أبو الأنبياء ومحطّم الأصنام الذي بعث بالتوحيد– أن يجنّبه تعالى عبادة الأصنام. فأمر العقيدة والتوحيد هو الشغل الشاغل له عليه السلام. ويتجلى نفاذ بصيرته عليه السلام في ذلك الدعاء بالتوحيد. فقد رأى عليه السلام التواء البشرية، وقابليتها للزيغ والسفول إلى عبادة الأصنام، ويعلم عليه السلام ما سيكون من تيه الإنسان بين ضلالات الإلحاد والعقائد والفلسفات والشبهات التي تُردي الإنسان إلى جنون الشرك، وانحطاط الوثنية والنفاق، فهذه الأوثان "أضللن كثيرا من الناس!"

ثم إنّ إبراهيم عليه السلام ترك ذريته بواد غير ذي زرع. فهو عليه السلام يعلّمنا أن رسالة العقيدة تأتي قبل حضارة المادة، وأن رسالة ذريته من بعده هي الحفاظ على هذه العقيدة، وليس المال أو التجارة أو الزراعة رسالتهم الأولى.

كما يعلّمنا عليه السلام أن التوجه إلى مسبب الأسباب أولى من الأسباب. فهو –عليه السلام– لم يخش من ترك ذريته في واد غير ذي زرع، لكنّه دعا ربه "فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون." فإقامة الدين هي الهدف، وشكر النعمة الذي يتجلى في صفاء وإخلاص عقيدة التوحيد هو الهدف الأسمى.

لقد وهب إبراهيم عليه السلام حياته لعقيدته، فكانت حياته ثورة على الوثنية، وعلى الشرك بالأسباب، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص لرب الأسباب.

لا ينال عهدي الظالمين

عندما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام: "إني جاعلك للناس إماما"، لم يجد إبراهيم عليه السلام؛ أبو الأنبياء، أغلى من هذه العقيدة، لكي يدعو بها لذريته، فقال عليه السلام مباشرة: "ومن ذريتي"، لكنّ الجواب الحاسم جاء سريعاً: "لا ينال عهدي الظالمين".

فنسب الظالمين لا ينفعهم، ولو كان لإبراهيم عليه السلام. وعندما يظلم الظالمون، أو ينحرفون عن عقيدة إبراهيم عليه السلام، لا تنفعهم وراثتهم له أو لبيته الحرام. فصلة النسب عند ذلك، لا وزن لها، ورابطة الإرث لا وزن لها، وعلاقة القرابة، أو الجنسية، أو القبيلة، لا وزن لها في ميزان الإيمان. ولهذا استدرك إبراهيم عليه السلام، بعد ذلك في دعائه: "من آمن منهم بالله واليوم الآخر."

ولأن هذه العقيدة هي أغلى ما يملكه يعقوب، فقد كانت وصيته لبنيه، عندما سألهم وقد حضره الموت: ما تعبدون من بعدي؟ فهو عليه السلام، لم يهتمّ لأمر نفسه، ولا لسكرات الموت، ولا لشيء وهو على فراش الموت، قدر اهتمامه بهذه العقيدة، وإيمان أبنائه وذريته بها.

ولأن هذه الرابطة هي أسمى رباط بين المؤمنين، فقد أُمروا بالإعلان عنها صريحة واضحة دون غموض، لأنها الرباط الحقيقي الذي يجمعهم على الحقيقة: "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم."

وقد أدرك أعداء الإسلام أنّ هذه العقيدة التي تربط المؤمنين هي مفتاح اتحادهم وقوتهم، فعملوا على إثارة العنصريات القومية والعرقية والجنسية بين أبناء هذه العقيدة، واستبعاد فكرة اتحادهم، وتشويه صورة الخلافة التي كانت تجمعهم، حتى يظلوا شراذم متباعدة، في الوقت الذي يتحد فيه غيرهم، مع ما بينهم من فرقة ومخالفة.

المنشاوي يقرأ بقلبه

عند الاستماع للشيخ محمد صديق المنشاوي –رحمه الله– لا تجد مجرد قارئ، بل قلبا يقرأ، فتتجسد معاني القرآن الكريم بصوته، وتصبح مشاهد منظورة؛ يشاهدها المستمع بعينيه، كما يستمع إليها بأذنيه! وهذه السجيّة شعور تلقائي لديه، يتكرر وينعكس في قراءته لكل سورة، فيعكس رحلة طويلة مع القرآن الكريم، وفهما عميقا له، وشعورا مرهفا به.

ويشعر المستمع بأدق معاني الآيات في نبرات صوته وطبقاته التي تزيد رخامة وجمالا بمد المنفصل، وتتنوع حسب اختلاف المعاني والمواقف والدلالات التي تتحدث عنها الآيات! فإذا انتقلت الآيات من مشهد إلى مشهد، شعرت بصوته يختلف لذلك الانتقال. وإذا قرأ آيات النار أو الحزن، وجدت صوته حزينا. وإذا قرأ آيات الجنة أو الفرح، وجدت صوته فرحا. وإذا قرأ حوارا، وجدت صوته يصور تباين مواقف المتحاورين. وإذا قرأ نداءً، وجدت صوته يختلج بمشاعر صاحب ذلك النداء. وإذا قرأ استفهاما، شعرت بنبرة الاستفهام في صوته. وإذا قرأ تعقيبا في نهاية الآية، أشعر صوته بحكمة ذلك التعقيب! وهكذا يعكس صوته أدق المعاني والأحاسيس التي تنقلها الآيات!

ومن روعة صوته، ذلك التنوع المعجز في طبقاته، حتى إنه ينوع بينها، ليس في الآية الواحدة فقط، بل في مجرد الكلمة. وذلك إعجاز صوتي متكرر وملاحظ في صوته كثيرا، رغم ندرة وصول كبار القراء إليه، فضلا عن غيرهم!

ومن مظاهر إبداعه التي تدل على عميق فهمه: اختياراته في الوقف والابتداء، وخفض الصوت، وفترات السكت، مع ما في مخارج الحروف من جمال وروعة، حين ينطقها بكل سلاسة ودقة!

ومن أراد حفظ القرآن الكريم بالسماع، فلن يجد أفضل منه؛ لأن التنوع البديع في أساليب قراءته، يجعل المستمع يحفظ الآيات تلقائيا، إذ يتذكر أساليبه المختلفة في قراءة مختلف الآيات!

ثم إنني لا أمل من صوته، خلافا لغيره! فبعد ما يزيد على ثلاثين عاما من الاعتياد على سماعه، لا أجدني مكتفيا من صوته في أي وقت! رحمه الله وتقبله في الصالحين!

الوجوه صفحات تُقرأ!

هذه حقيقة فعلا وليست مجرد كلام أدبي! فشخصية الإنسان تظهر أكثر ما تظهر في الوجه، كما تظهر في فلتات لسانه، وألفاظه، وأسلوب حديثه. كما قال تعالى: "إن في ذلك لآيات للمتوسمين." فعن مجاهد: "هم المتفرسون." وقال تعالى: "سيماهم في وجوههم من أثر السجود... تعرفهم بسيماهم... فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول." وفي الحديث الشريف: "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله." وفيه: "المؤمن مرآة أخيه."

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه: "ما من عبد يسرّ سريرة، إلا ردّاه الله رداءها علانية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ". وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: " أسرّوا ما شئتم. من أسرّ سريرة خير ألبسه الله رداءها، ومن أسرّ سريرة شر، ألبسه الله رداءها."

وعلاقة الوجه بالشخصية تسير في اتجاهين: فكما أن ملامح الوجه قد تحدد الشخصية، فإن التغيير على الشخصية يظهر في الوجه. وهذا ما قد يفسر الشبه بين المتزوجين بعد فترة من زواجهما.

ولا ترتبط هذه الفراسة بجمال ملامح الوجه بالضرورة؛ فقد لا يكون وجه الإنسان جميلا، لكنه مُريح، وقد يكون جميلا، لكنه منفّر.

ولا تكاد فراسة المؤمن تخطئ. وهي نوع من البصيرة التي كتب فيها الكتّاب، وألف فيها المؤلفون، ووضع العلماء لها أصولا وقواعد. وهذه الفراسة ليست مجرد معرفة إن كان الإنسان طيبا أو خبيثا، لكنها أشمل من ذلك وأدق.

فالإنسان الذي يخاف الله، سوف ترى ذلك في وجهه. والإنسان السهل الطيب، سوف ترى ذلك في وجهه، والإنسان الكريم، سوف ترى ذلك في وجهه، والإنسان الذي يكثر من ذكر الله وقيام الليل والصدقة وعمل الخير، سوف ترى ذلك في وجهه، إن كنت صادق الفراسة!

والحقود، والحسود، والعنيد، والتافه، والغضوب، والكاذب، والخائن، والمبتدع، والبخيل، وآكل الحرام، سوف ترى ذلك في وجهه، إن كنت صادق الفراسة!

ومضات

عندما توقد سراج الحقيقة، يلعنك الغافلون، لأنك توقظهم من أحلامهم الكاذبة!

فلما قضى موسى الأجل. لم يذكر أي الأجلين، لأن المؤمن بطبيعته يفي بأوفى عهد!

ومضة نور هداية، تنير بها قلب إنسان!

بسمة بريئة ترسمها على شفتي طفل بريء!

دفقة حماس مع انتصار على النفس!

لحظة شعور بارتياح جسد، تلي رهقا في سبيل الله!

شعور بقلب طاهر، يرفرف جناحاه سعادة!

أسارير تراها تبرق بعد طول حزن!

شعور فخر، تزرعه في قلب إنسان!

منحة تمنحها دون توقع!

بريق أمل تلمحه في عيني شاب حييّ!

فرح وثناء لخطوات طفل كان يحبو!

نظرة امتنان في عيني فقير!

إنسان آخر، في بلد آخر، في قارة أخرى، يخرج لك سهم صدقة في مسجد!

دعاء منهمر لك، لم تسمع أذناك مثله من قبل!

عبرات تنهمر في قيام ليل، لا تملك منعها!

دموع تنسكب عطفا، رغما عن إرادتك!

قوة هائلة تحسها رغم قلة حيلتك!

دعاء توقن بإجابته قبل تحققه!

يقين يغلب دجى الليل وقهر الظلم!

سعادة كبيرة لهدية بسيطة!

وقت تمنحه لعجوز وحيد، لا يجد من يحادثه!

تلك سعادة الدنيا.

إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطينا أن كنا أول المؤمنين.

طمعوا بالمغفرة لأنهم أول المؤمنين.

فكل من آمن وواجه الظلم أولاً، يكون مثلهم.

- إشكالية يحتار فيها كثير من الناس: عندما يتطاول أحدهم على الدين الإسلامي أو رسولنا الكريم، أو يشوه أي رمز أو مبدأ إسلامي، أو عقيدة إسلامية، هل نردّ عليه ونوضح زيفه وزيف هذا التطاول أو التشويه، حتى لا يفتن الناس، أو يفسد عقيدتهم، أم نعمل بمبدأ "أميتوا الباطل بالسكوت عنه"؟

الواقع: أننا نعيش وسط آلاف القنوات والوسائل والأصوات التي تتطاول على الإسلام بالفعل وتشوه مفاهيمه وتزيف مبادئه، ونعيش وسط آلاف الدعاة المزيفين الذين لا يكفون عن تشويه الإسلام وتزييف حقائقه. وقد حققوا قدرا هائلا من أهدافهم بالفعل في قلوب المسلمين وعقولهم. فلو سكت كل المسلمين عنهم، لحققوا كل أهدافهم كاملة، ولأفسدوا عقيدة المسلمين لا سيما النشء الصغير، أكثر وأكثر كما يريدون.

فلا يسع المسلم السكوت عن هؤلاء أبدا!

أما مبدأ "أميتوا الباطل بالسكوت عنه"، فإنه يصلح عندما لا يكون الباطل قويا أو شائعا كما هو الآن!

- أكبر جريمة نرتكبها في حق مبادئنا، ألا نطبقها بصدق يمحو عنها المظهرية، وبإخلاص يزيل عنها النفعية، وبفعل ينفي عنها الخواء!

لم تعرف البشرية صفحة حياة إنسان، نُشرت بأدق تفاصيلها أمام العالمين، مثل نبينا محمد،

صلى الله عليه وسلم!

مثلما يخطئ الإنسان في القرب ممن يريد له الشر، يخطئ في البعد عمن يريد له الخير!

ربنا أفرغ علينا صبرا

لم يحدد قدرا معينا! بل قال: أفرغ.

المسلم يحتاج من الصبر إلى إفراغ لا يتوقف. إلى شلالات متدفقة تنصبّ عليه في كل آن!

إلى أنهار متجددة يواجه بها فتن الحياة وعذاباتها. إلى بحار تغسل عنه خذلان البشر وغدرهم.

إلى أمواج متجددة، تجاوز به صدمات الأحداث، ونير الظلم!

ربنا أفرغ علينا صبرا!

قال: انتشر الإسلام بالسيف!

قلت: نعم، وهل يضيع الحق إلا دون سيف يحميه؟

أما الإكراه والقتل والتهجير، فهو دين الغرب في كل زمان ومكان!

ولكن لا تحبون الناصحين! لماذا ذكر كلمة تحبون دون غيرها في هذا السياق؟ لأن الناصح غير محبوب. الناس لا يحبون الصادقين، ولكن يحبون من يوافقهم على هواهم! ويكرهون من ينصحهم مخلصا، حتى لو كان نبيا!

كلهم يحسن الكلام، لكن الصادق من تعفف!

وجد مالا حراما يطلبه، فأبى!

أو امرأة جميلة تطلبه، فأبى!

أو انتقاما سهلا يطلبه، فأبى!

"قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت؟" من نعم الله التي ينبغي شكرها، أن يرزقك الله صاحبا لا يخجل من النطق بكلمة الحق!

على عكس كل العقائد البشرية، لم يعرف الإسلام أي ارتداد عقدي، رغم كل الحروب الدموية والثقافية التي شُنت عليه!

ملخص وصول الإلحاد إلى العرب:

إلحاد أوربا،

استيراد العرب للإلحاد، مثلما يستوردون كل شيء!

الإيمان ليس مجرد مظاهر وشكليات:

"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب..."

ولكن الإيمان عقيدة:

"ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين..."

هذه العقيدة تنتج عملا وواقعا فعليا وعطاء حقيقيا:

"وآتى المال على حبه... والموفون بعهدهم... والصابرين..."

فهؤلاء هم الصادقون وأصحاب الإيمان الحقيقي:

"أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون."

- الفارق الجوهري بين العملة الأصيلة والمزيفة، لا يظهر لمعظم الناس، إلا بعد فحص وتحقق واختبار! هكذا هم البشر!

- لو لم يكن الحزن نصيب ابتلاء المؤمنين في الدنيا، لما قالوا في الجنة:

"الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن"

- الشهيد:

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى. لم يذكر اسمه، ولم تذكر صفته، سوى أنه "يسعى"! لكن صدق سعيه خلّد شخصه! لم يذكر عنه سوى نصح قومه ومجادلته لهم!

لكنه بذل روحه فداء لنصحه وإخلاصه!

ومن عمق صدقه أنه لما قيل له: "ادخل الجنة"، تمنى لو لحق قومه به، وقال: يا ليت قومي يعلمون! لكن جاء القصاص العادل العاجل وعذاب قومه جزاء لهم: "فإذا هم خامدون!"

- انهزم المسلمون في أحد، مع أن عدد المخالفين كان قليلا! انهزموا لمجرد ميل قلوب ذلك العدد إلى الغنائم، مع أنه لم يحزها، ومع أن المعركة كانت قد انتهت! أراد شيئا من الدنيا لم ينله! لكن نقص الصدق الكامل!

فوجّه القرآن الاتهام صريحا لا لبس فيه ولا مواربة: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة! نقص الصدق ولو بأقل قدر ممكن، يحبط أي عمل، حتى لو كان ذلك العمل على وشك الانتهاء، وحتى لو تضمن هذا العمل الذهاب إلى المعركة والقتال!

- عندما أيقن أعداء الإسلام باستحالة تحريف القرآن الكريم، مثل الكتب السماوية الأخرى، عملوا جاهدين على تحريف فهم المسلمين له!

- المنافقون أشد خطرا من الكافرين، لأن المنافقين كرهوا الإسلام بعد تيقنهم صدقه وهدايته! والحرب الخفية أخطر من الحرب الصراح!

- حذر القرآن من تلبيس الحق بالباطل، لأن الباطل الصريح يسهل كشفه! أما الباطل الملتبس ببعض الحق، فإنه أخطر ويلتبس على كثير من الناس!

مع مرور قطار العمر، تزيدنا يد القدر القاهرة فهما وقناعة بأنها لا تتحرك إلا لما فيه كل الخير للإنسان، مهما بدا الخير في غيره! وقد يكون فيما نحبه، ونرغب فيه كل الرغبة، ونحرص عليه أشد الحرص، كل الشر! وقد يكون فيما نهرب منه ونكرهه، كل الخير، ونحن لا ندري!

وقد يكون في المحنة التي قدرها الله علينا، أكبر منحة ربانية، في الدنيا أو الآخرة، رأينا ذلك أم لم نره، فهمناه أم لم نفهمه!

وقد يبدو الشر صارخا لمن تعرض لحادث أو مرض أو إعاقة أو طلاق أو فقدان أحباب أو عدم إنجاب، لكن يتضح مع الأيام أن في ذلك الذي يبدو أنه شر، كل الخير! وقد يمتد زمن فهمنا لذلك، وجزاء صبرنا عليه، حتى نصل إلى الآخرة!

فالرضا يحتاج إلى حكمة وقناعة راسخة في القلب بحكمة الله في كل أمر، واطمئنان لقدر الله، ولا يقدر على ذلك إلا من أحسن عمله، وجعل ظاهره مثل باطنه، ليكون قادرا على الرضا باستشعار معية الله معه ولطفه به في كل آن!

"واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" أبو الأنبياء ومن أرسله الله برسالة هدم الأصنام، يخاف أن يفتنه الله بعبادة الأصنام!

العقيدة ليست كلمة نكتبها على الفيسبوك! هي عمل يصبغ حياتنا، شعور يخالج سكنات الروح والنفس، وفي القلب حياة بعد موت، ونور بعد ظلمة!

فلا تكن من الممترين! فلا تكونن ظهيرا للكافرين! فلا تكونن من الجاهلين! وما كان للنبي ذلك! لكنها ضرورة التثبيت على وعثاء الطريق!

عندما واجهت السيدة عائشة رضي الله عنها، حادثة الإفك، وهي في تلك السن الصغيرة، لم تزد على قول سيدنا يعقوب: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. شعرت بالقهر والظلم وانعدام الحيلة، فلم تزد على تفويض أمرها لله! لذلك ارتقت إلى مكانة مريم، ونزل القرآن بتبرئتها، وسنّ تشريعات باسمها! إذا شعرت بالظلم والقهر، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل!

يكثر الالتفات في القرآن الكريم من يهود بني إسرائيل على عهد موسى عليه السلام، إلى يهود المدينة، لنعلم أن اليهود صنف واحد على مدار الزمن! كما يكثر الالتفات من الحديث عن بني إسرائيل إلى خطاب المسلمين أنفسهم، لنعلم أن المسلمين سوف يحذون حذو بني إسرائيل!

كما يكثر الحديث عن علماء اليهود وتلبيسهم الحق بالباطل، وأمرهم الناس بالبر ونسيان أنفسهم، واتخاذ الناس لهم أربابا من دون الله، لأن ذلك يفعله كثير من علماء المسلمين المغيبين لوعي الشعوب!

كان اليهود يتفاخرون على عرب الجاهلية بأنهم أهل كتاب!

كانوا يأملون أن يكون النبي المنتظر منهم، لكي تستمر سلطتهم الدينية!

فلما جاء النبي من العرب، حاربوا الإسلام، ليس دفاعا عما يعتقدون أنه حق، ولكن حسدا للمسلمين الذين أصبحوا أهل كتاب مثلهم، وطمعا في استمرار سلطتهم الدينية ومفاخرتهم بدينهم وكتابهم على الأميين!

هكذا هم أصحاب السبوبة والسلطة الدينية في كل زمان ومكان، لا يدافعون عن الحق بقدر ما يدافعون عن سلطتهم الدينية!

الدين الحق ليس أفيون الشعوب! لكنه يصبح كذلك، عندما يتحوّل مظهرا دون جوهر، وكلاما دون رصيد!

"إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم." متفق عليه. هل تتخيل معركة أزلية يخوضها الإنسان، يصل مجالها إلى دمه؟

"قالوا إنما نحن مصلحون"

هكذا بكل بجاحة: "مصلحون"! إنهم لا يدّعون الصلاح فقط، بل يدّعون الإصلاح أيضا! إن مدعي الصلاح والإصلاح كثر في كل زمان ومكان. وهم يدّعون الأخذ بزمام المجتمع إلى الصلاح والتقوى، لكن الحقيقة هي أنهم منافقون، لا يسيرون بالمجتمع إلا في طريق مصالحهم ومكتسباتهم ومكانتهم الشخصية فقط!

من عجائب الملحدين: نفورهم من أزلية الله، وتمسكهم بأزلية الكون!

ونفورهم من خلق الله للكون، وتمسكهم بأن الكون خلق نفسه!

دخل النبي على فاطمة ابنته، فلم يجد عليا في البيت، فقال: أين ابن عمك؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني فخرج!

هذا الحديث نموذج عملي للعلاقات الإنسانية القريبة الوثيقة، ومن فوائده:

- الاختلاف يقع بين أي زوجين مهما سمت أخلاقهما؛ فهو مجرد "شيء"!

- عدم تحرج السيدة فاطمة من إخبار النبي بوجود مشكلة.

- نظرة السيدة فاطمة والنبي إلى أن الخلاف شيء عادي، مع أن سيدنا علي غضب حتى ترك البيت!

- لم تفصح السيدة فاطمة عن طبيعة المشكلة حتى لأبيها وهو نبي!

- لم يسأل النبي عن سبب المشكلة، صيانة لخصوصية الزوجين مع قربهما منه.

- سمو أخلاق سيدنا علي وإيثاره الخروج من البيت.

- يبدو أن النبي ببديهته استشعر عدم خطأ سيدنا علي، ولما علم من حساسية شخصيته ورهافة حسه، فقد ذهب إليه في المسجد، ولم ينتظر حتى يستيقظ، بل أوقظه، مستلطفا له قائلا: قم أبا تراب! قم أبا تراب!

- شرع الله تعدد الزوجات؛ كأرقى نظام عرفته البشرية للتكافل الإنساني والاجتماعي، ولتلبية الحاجات المادية والإنسانية للمرأة والرجل !

ولم يشرع تعدد الأزواج للمرأة صونا لكرامتها، وتوافقا مع فطرتها !

لكن مبغضي الحلال يكرهون شرع الله ويشوهون صورته .

والحقيقة هي أن مجتمعاتنا الهابطة لا تصلح ولا تستوعب ولا ترقى لهذا النوع من السمو الإنساني وجوهره المتمثل في العطاء الحقيقي العملي، وليس مجرد كلمات رنانة وشعارات جوفاء!

- المنافق إنسان يخشى تأييد الحق بالإقرار الصريح!

ويخشى مواجهة الباطل بالإنكار الصريح!

- قصة انحطاط بني إسرائيل من "ولقد اخترناهم على علم" إلى "ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب" تحكي انحطاط المسلمين!

"فرح المخلفون بمقعدهم... وكرهوا أن يجاهدوا!"

بدء الآية الكريمة بالفعل "فرح" يثير الدهشة! لم تبدأ الآية بالتخلف نفسه أو تفنيد أسبابه أو خطورته؛ بل بدأت بالفعل "فرح"! فكارثة هؤلاء المخلفين أنهم "فرحوا" بالمعصية!

كذلك الفعل "كرهوا"! فكارثة كرههم للجهاد أكبر من عدم جهادهم نفسه!

ليس هناك مؤمن يفرح بالمعصية، وليس هناك مؤمن يكره شعيرة أو ركنا إسلاميا!

إن الإخلاص والصدق في العمل أهم من العمل نفسه! والفرح بالمعصية أسوأ من المعصية نفسها!

كثيرا ما يختلف فهم الدين باختلاف طبيعة الشخصية! فتجد السطحي يهتم بالمظهر على الجوهر، وحاد أو سهل الشخصية حاد أو سهل الفهم!

الطريق عسيرة عصيبة، عليها السقط يسقط، والكل يكبو، ولا يصل إلا من صبر! ولا يصبر إلا موفق!

من كفران الإنسان بالنعمة، أن يألفها حتى ينسى شكرها، بل قد يضجر بها!

- قبيل معركة "أحد"، قال جابر بن عبد الله إن أباه قال له: "ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي، وإني لا أترك بعدي أعز عليَّ منك غير نفس رسول الله! وإنَّ عليَّ ديناً، فاقضه، واستوص بأخواتك خيراً. فأصبحنا وكان أول قتيل."

هذا الصحابي الجليل يرسم صورة من أروع صورالفداء التي عرفها التاريخ! إنه ليس شابا يمكن أن يضحي بحياته وينتهي الأمر، لكنه صاحب أسرة كبيرة، قوامها ست بنات وشاب واحد! ست بنات يحتجن إلى من يكفلهن ويحنو عليهن بعد موته! ولم يترك لهن ما يكفيهن من المال! بل كان مدينا؛ فأوصى ابنه بسداد الدين والإحسان إلى أخواته. ثم هو يصرح لابنه بأنه يحب رسول الله أكثر منه! ثم قد بلغ من شفافية روحه أن شعر بقرب أجله! ثم هو يفتدي ابنه بنفسه، فيجود بروحه حتى يبقى الابن لأخواته يخدمهن؛ فهو يعلم أن ابنه لو قتل قبله، فلن تطول به حياة! إن أصحاب المبادئ يسرعون إلى تطبيق مبادئهم واقعا عمليا، حتى لو كان الثمن حياتهم!

- نُهي النبي عن تخصيص وقت لدعوة أغنياء قريش، على حساب فقراء المؤمنين، لنعلم أن الأسباب غير مقصودة لذاتها، ولو قُصد بها الخير!

لا إله إلا الله! وليس لا رب إلا الله!

فكفار قريش كانوا يقرّون بأن الله هو رب الكون وخالقه: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ... وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ!

لكنهم استنكروا أن يكون الله هو "الإله"!

أرادوا أن يكون الله "ربا" من الأرباب؛ تقال له بعض الأدعية، أو تؤدى له بعض الطقوس والعبادات! لكن لا يحلّ ولا يحرّم ولا يشرّع ولا يحكم!

ولهذا استنكر القرآن الكريم منطقهم، فقال: "ألا له الحكم... ألا له الخلق والأمر."

فالذي خلق هو الذي يحكم، وهو الذي يشرّع ويحلّ ويحرّم!

فالإسلام هو الاستسلام!

ربما أراد الله لنا الخير في منع، في ضر، في تأخير!

فالأمر ليس لنا! الأمر كله لله!

من علامات مدعي العلم، أنه يسبّ غيره بسبب مسائل خلافية! ولا ينشر العلم ليفيد غيره، بل ليتباهى به، فينشر الشاذ من الآراء!

هل يمكن أن يدعو الله المؤمنين إلى الدخول في الإسلام؟

نعم! كما في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة! أي طبقوا شرائع وأحكام الإسلام كلها!

وهذا هو معنى الإسلام! فالإسلام هو أن يستسلم المسلم لجميع أوامر وأحكام الله! فإذا لم يكن لديه مانع من خوف أو ضعف أو جهل أو شهوة، لم يكن له بد من اتباع أحكام الإسلام المختلفة. فالإسلام ليس معرفة أن الله هو الخالق الرازق! لأن كفار قريش كانوا يعلمون ذلك! وإبليس نفسه يعلم ذلك! لكنهم رفضوا الاستسلام لأوامر الله!

فالإسلام هو الاستسلام!

ما يميز إنسانا عن إنسان، ليس ماله أو نسبه أو علمه أو كلامه أو شهادته أو مظهره، ولكن صدقه وإخلاصه وعطاؤه ومعدنه!

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!

لم يقل حتى يغيروا ما بهم! فما بهم يحل بهم من خارجهم! قد يكون عدوا، أو فقرا، أو مجاعة، أو تخلفا حضاريا، وهذا الذي يغيره الله، إذا غيرنا ما بأنفسنا!

فالتغيير المطلوب ليس وراء أنفسنا وليس وراء الأسباب التي لا نستطيعها! التغيير المطلوب حتى يغير الله ما بنا، يتعلق بأنفسنا وذواتنا وأفعالنا!

والتعبير بالأنفس إشارة إلى ما تسول به النفس؛ فالنفس أمارة بالسوء! فلنغير السوء الصادر عن النفس من فعل وقول وشعور تجاه الآخرين!

وبمفهوم المخالفة: إذا لم يغير الله ما بنا، فإننا لم نغير ما بأنفسنا!

"إليه يصعد الكلم الطيب": أي سلوى أكبر من ذلك؟ إن كان يصعد، فلم يضع هباء وإن لقي صدود البشر!

الكريم يسعد لرغبتك في إسعاده بأي شيء، أكثر من أي شيء!

- اخترع الإنسان وسائل الانتقال، ليوفر الوقت، فإذا به يضيق، واخترع وسائل الاتصال، ليزيد التواصل، فإذا به ينحسر!

- كم من ضعيف رفعه ضعفه وقواه حين كان ضعفا وتذللا لله.

- إذا حسنت النية، نفع العلم والعمل ولو كان قليلا!

ولو فسدت النية، لم ينفع العلم والعمل ولو كان كثيرا!

- غياب الأنقياء المخلصين، يترك الدنيا مسرحا، للأدعياء المنافقين المرائين!

- من يقابل المعروف بالإساءة، يفقد الناس الثقة في جدوى المعروف!

ومن يتظاهر بالدين، يفقد الناس الثقة في جدوى الدين!

- النبي صلى الله عليه وسلم كره كلمة "أنا"

حتى لمن أراد تعريف نفسه!

تخلّف العرب فى النور، وتقدم غيرهم فى الظلام!

تجد أكثرهم تكبرا على المرؤوسين، أكثرهم خوفا من الرؤساء! وتجد أكثرهم تواضعا مع المرؤوسين، أكثرهم شجاعة مع الرؤساء!

قد تبدو قويا، لكن الحقيقة هي أنك في أضعف حالاتك!

قد تُحسب غنيا، لكن حقيقتك هي أنك أفقر ما تكون!

قد تكون مشهورا في الأرض، لكن ليس لك ذكر في السماء!

مدّعو السلفية، نابوا عن الصوفية في تزوير الدين، وجعله مجرد طقوس وكلام!

الغنى الحقيقي هو الغنى عن الناس، والملك الحقيقي هو الخلاص من ذل الحاجة!

أصلح لي شأني كله: تتوكل على الله وهو يصلح بحكمته حياتك، يبيد بلطفه قلقك، يجبر برحمته كسرك، ويقوي بعزته ضعفك!

يدبر الأمر:

يعينك على حياتك، يبيد مخاوفك، يقهر عجزك، يصرف عنك سوء رغباتك!

يدبر أمرك، من كل ضيق إلى كل سعة!

هو خلقك وأعلم بأمرك!

النفس الوضيعة ترى الدنيا كبيرة، فتهلع!

والنفس الشريفة ترى الدنيا صغيرة، فتهدأ!

نحتاج إلى الكثير من الوهم، كيلا تفجعنا الحقيقة!

أصبحنا نشعر بعلاقة عكسية بدهية بين القول والفعل، والمظهر والجوهر!

- كلما زادت خبراتنا في الحياة، زاد إدراكنا لصعوبة معاني كنّا نظنّها سهلة:

الأخوة، الصداقة، الأصالة، المروءة، الصدق، الوفاء!

- الابتلاء بالخير أشد من الابتلاء بالشر، وإن خُيّل لنا عكس ذلك. فقد طُبع الإنسان على التسلح والاستعداد والاصطبار لضروب الشدائد والمحن! لكن الابتلاء بالخير يأتي دون مقاومة، بله استعداد أو حسبان!

فقد يصبر كثير على الابتلاء بالمرض والفقر، لكن القليل يصبر على الابتلاء بالصحة والغنى، وكبح جماح القوة واليسار! والكثير يصبرون على الحرمان، فلا تهوي نفوسهم ولا تذل. لكن القليل يصبرون على السعة والوجدان والاغتناء! وقد نصبر على الكفاح والجراح؛ ولكن من يصبر على الرخاء والنعماء؟ من يصبر على البخل يذل أعناق الرجال؟ ومن يصبر على الكسل والاسترخاء الذي يهبط من عل بالأرواح!

الابتلاء بالشدة يثير الكبرياء، ويستثير الاعتزاز. أما الابتلاء بالرخاء، فيسدل جفون عين اليقظة، فيفقد النظر ويشل الحراك.

أساليب مغلوطة يتبعها أكثر الناس لإجبار الآخر على الاحترام:

استغلال منصب أو مال!

استغلال حاجة الآخر!

استغلال نقاط ضعف الآخر!

بل يستخدمون المظاهر مثل ارتداء ملابس فاخرة أو اقتناء سيارة فاخرة!

المبادرة بلوم الآخر، أو التظاهر بالمزاح وهم ينتقدون الآخر انتقادا لاذعا دون حق!ولا يترك

هؤلاء فرصة أو مناسبة دون نقد ساخر!

ولا يترك هؤلاء وسيلة ضغط للإجبار على الاحترام!

هؤلاء لا يستحقون أي احترام!

أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ:

خشي سيدنا موسى وهو رسول ونبي، من الوعد بشيء قد لا يستطيع الوفاء به!

إذا كان أصحاب هذا الدين يتاجرون به، فلماذا لا يتاجر به أعداؤه؟

إن فزت بصديق واحد فقط في هذه الدنيا، فقد حققت إنجازا هائلا!

- اللافت في قصة سيدنا موسى وصاحب مدين، هو الصدق! فقد كان أدعى له ألا يخبر الرجل بقصته! كما صرّح الرجل برغبته!

- انسج لنفسك ثوبا، تلبسه حين يُحشر الناس عراة، إلا من ثوب التقوى!

- كلما سارت بنا دروب الحياة، أدركنا صعوبة لقاء إنسان سويّ، فضلا عن إنسان نبيل صادق كريم، وزاد عرفاننا لمن أثبت أصالته، وإن ندر!

- يقول: عندما أحتاج شراء شيء، أدّخر له! تذكرتُ على استحياء أن آخر مرة ربما فعلتُ فيها ذلك، عندما كنت طفلا صغيرا!

نعمٌ منسية!

- أجمل زينة للإنسان أن ينسج من صدقه ثوبا يلبسه وجهه،

فيرى الناس الجمال في صدق وجهه، لا في قسماته!

ما يميز إنسانا عن إنسان، ليس ماله، أو نسبه، أو علمه، أو كلامه، أو شهادته، أو مظهره، ولكن صدقه وإخلاصه وعطاؤه ومعدنه!

الإنسان الذي لو أقسم على الله لأبرّه، هو مجرّد إنسان أحسن الظن بالله بيقين!

هل تستوعب معنى العبادة لدى المسلمين الأوائل قبل فرض العبادات عليهم؟

إنه المعنى الأصلي للإسلام: وهو الخضوع لله وحده!

كان الكفار يطوفون بالكعبة وهم عراة! فلما طاف المسلمون بثيابهم، عيّرهم المشركون!

فنزلت "قل من حرم زينة الله"! انظر اختلال المفاهيم!

خلل بلادنا يتجاوز سوء أوضاع المعيشة! فنحن نعيش عصر تمزيق الممزق، وأمركة الإسلام وهدمه، وخلق بروتستانتية إسلامية!

فضح المنافقين منهج إسلامي أصيل، كما نزلت سورة المنافقون وسورة الفاضحة، وحذّر منهم القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة!

- حاجة المسلمين اليوم إلى معرفة نواقض الإسلام، أكبر من حاجتهم إلى معرفة نواقض الوضوء!

- مناجاة الله، ولو لثوانٍ معدودة، تمنحك طاقة هائلة، تواجه بها ضروب الحياة وزيف البشر!

- احتضار الأحلام، وفشل التجارب، جزء من الحياة، علينا تجاوزه والتعلم منه.

- أقوى المعارك، هي تلك التي نخوضها مع النفس، وأسمى مراتب الشجاعة، مع الذات.

- "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا". "لنا" وليس "علينا". فما يكتبه تعالى للمؤمن خير، ولو بدا غير ذلك!

- بدل أن تكون كلمة "الجهاد" ذروة سنام الإسلام، جعلها المغرضون مرادفا للإرهاب، كما غيروا كلمة المجاهدين إلى الجهاديين أي المتطرفين!

- عندما قال سيدنا إبراهيم: "واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام"، وقال سيدنا يوسف: "توفني مسلما وألحقني بالصالحين"، وعندما سأل سيدنا عمر سيدنا حذيفة إن كان من المنافقين، لم يفعلوا ذلك لمجرد التواضع، بل كانوا يخشون حق الخشية بالفعل، وكانوا يعلمون بالفعل أن الشرك والنفاق ليسا مستبعدين على أي إنسان. فكلما زادت يقظة المؤمن، كان إدراكه لخطر الشرك والنفاق وشعوره بسهولة وقوعه فيهما أكبر! أما الغافل أو الجاهل أو المنافق، فإنه يفقد ذلك الشعور! وليس أدلّ على سهولة ذلك من شيوع النفاق والشبهات، في عصرنا الحاضر، حتى بين من يدعون أنهم من العلماء أو الدعاة أو على الحق!

- تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون... فلا تعلم نفس ما أخفي لهم. مثلما أخفوا صلاة الليل، أخفي لهم من قرة أعين!

- لا أعلم سببا للنجاة من المهالك، وشرّ الحوادث، ومكر البشر، مثل سلامة القلب، وبرّ الوالدين!

- من حكم النوم، أنك تسلم جسدك وروحك لله، كل يوم، أفلا تسلم له بعض شأنك كل يوم؟

- أن تقول كلمة حق، فتلقى سخط البشر، خير لك من قول كلمة باطل، تنال بها رضاهم.

- سعى الغرب لتبديل الدين الإسلامي، بالحضارات القومية السابقة عليه من ناحية، وبالحضارات الغربية التالية له من ناحية أخرى!

- قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا! لم يعترض سيدنا موسى على الخضر، لكنه اقترح فقط، فاعتبره الخضر اعتراضا! فلا تقل "لو" لمشيئة الله أبدا!

- إنكار السُنة والطلاق الشفوي وسب البخاري وتأييد التطبيع وزواج المحلل والتجربة! المنافقون الجدد يريدون دينا غير الإسلام!

- اتحدت الصليبية والصهيونية والوثنية على الإسلام، متسلحة بقوى الأرض وخبرة التاريخ والعملاء! لو كان الإسلام دينا آخر لانمحى منذ بعيد!

- "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام". أبو الأنبياء ومن أرسله الله بهدم الأصنام، يخاف أن يفتنه الله بعبادة الأصنام!

- لم يستغرق الذي أخفى الصدقة، والذي بكى خاليا، والذي دعته امرأة فخاف الله، غير لحظة صدق حقيقي واحدة، فأظلهم الله بظله!

- الدعوة إلى الخروج على المذاهب الأربعة، بحجة عدم التقليد، نوع من الدجل وتشويه الإسلام، يمارسه دعاة التدليس!

- الخط الذي يرسمه القدر، يجاوز دائما فكر البشر!

- وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون.

منهم المستشرقون ومدعو الإسلام في عصرنا الحاضر! فهم يتظاهرون بالإسلام، ثم يطعنون فيه، أو يشوهون مفاهيمه الأساسية، أو يثيرون الشبهات، أو يرتدون عنه، حتى يشك المسلمون في إسلامهم أو يسيئوا فهمه!

- نصف المثقف ونصف المتدين كارثة كبرى! ولو اجتمعا في شخص واحد، كانا كارثة أكبر!

- الباطل لا ينتصر على الحق في أي صراع، إلا أن يكون الصراع غير شريف!

- ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك! كلمة "دين" تعني: تطبيق الشريعة والحكـم والسـلطان والقضاء.

- لا تعلمهم نحن نعلمهم... من شدة إتقان المنافقين للنفاق، لم يعلمهم النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا بعد الوحي!

- وأحيط بثمره: من الأساليب البلاغية القرآنية المعجزة، أن يتحدث القرآن الكريم بصيغة المستقبل، ثم ينتقل فجأة إلى صيغة الماضي، فيقرر بذلك الانتقال وحده أن المستقبل الذي تحدث عنه قد حدث بالفعل.

فعندما قال أحد الصاحبين للآخر: "فعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنْ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً،"

تجاوز السياق هذه الأحداث التي حذّر منها ذلك الصاحب، حيث يفيد ذلك التجاوز وحده أنها قد تحققت بالفعل، ثم يواصل الحديث إلى تقرير وتأكيد الحدوث، بانتقاله المفاجئ إلى الزمن الماضي: "وأحيط بثمره...."

فسبحان من أنزل كلاما لا يمكن، ولا يصح، ولا يعقل أن يكون كلاما بشريا!

- انتقل الغرب من فرض العلمانية فرضا على غرار النموذج الكمالي التركي، إلى تقديمها في صورة تجديد خطاب ديني، لكي يقتنع المسلمون بها!

- من علامة توفيق الله للعبد، شعوره أنه ليس هو الذي يتصرف، بل يشعر بمعية الله تدفعه دفعا، للكلمة والخطوة والفعل. "وروح القدس معك".

- ما نـراه مـرونـة قد يكون تمييعا! وما نراه تساهلا قد يكون تفريطا!

وما نراه تشددا قد يكون تمسّكا!

والذين يمسّكون بالكتاب.

- ليس المنّ على من أعطيته فقط، ولكن على من علمته، فذكرته بعلمك أو بجهله!

- لم تعرف البشرية دينا واجه الصليبية والصهيونية والشيوعية والتشويه والعداء وحده، مثل الإسلام! ومع ذلك، فهو الأكثر انتشارا!

- ليس الانفعال مكروها لذاته، فموسى ألقى الألواح، وقتل خطأ، وأخذ برأس أخيه، ولم ينفعل عزيز مصر!

- وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها... الضحكة تسبق البشارة! هل رأيت تصويرا وبلاغة أعجز من ذلك؟

- قالت مريم إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فأيقن زكريا ودعا: هنالك دعا زكريا ربه! فلا تحقرنّ كلمة قد تصلح بها غيرك!

- ليست العناية الإلهية أن يسلم المؤمن من الأذى. إنما هى لطف الله به!

- عندما أرى وجوه الدعاة المزيفين مؤيدي التطبيع، وإهانة الإسلام بزعم حرية التعبير، أتذكر مسيلمة الكذّاب! ولا أعيب الخلقة!

مُنْكِر التراث ليس مجددا، ولو زعم ذلك! والمُعتزّ بالتراث ليس رجعيا، ولو اتُهم بذلك!

والتراث مظلومٌ، بين محنّطٍ له، وناقمٍ عليه!

ما على المحسنين من سبيل: ضعفاء ومرضى، ولم يجدوا ما يجاهدون به، لكنّ ما في قلوبهم من نصح وإخلاص، رفعهم إلى درجة المحسنين!

وإلا تصرف عني كيدهنّ، أصب إليهن وأكن من الجاهلين. الجهل أشمل كثيرا من نقص المعرفة!

هل يوجد ما يسمى "خلاف ديني"؟

أرى هذه العبارة غير العلمية، تُرسل في معرض الكلام وكأنها حقيقة بدهية!

فالإسلام كما علمنا من أصوله: أصول وفروع، وكليات وجزئيات، وأركان وشُعب! ولا يستوي كل ذلك، ولا يُحصر الخلاف فيه في صورة واحدة!

فالخلاف في أصول الإسلام التي لا تتغير، غير جائز!

وإنكار أي من أصول الإسلام، أو المعلوم منه بالضرورة، خروج عن الإسلام!

وتأييد إهانة الإسلام بدعوى حرية التعبير، خروج عن الإسلام!

وإنكار وجوب تطبيق الشريعة، خروج عن الإسلام!

وعزل الإسلام عن الحياة، وادعاء أنه ليس إلا مجرد طقوس، خروج عن الإسلام!

أما الخلاف في الأحكام الفرعية، غير قطعية الثبوت، فهو جائز، وقد اختلف العلماء فيها من قديم.

فلنحذر مثل هذه العبارات غير العلمية التي تؤدي حتما إلى خلط الحق بالباطل!

- ويل للمطففين! في مطلع هذه السورة بعد أن عرّف الله سبحانه وتعالى معنى التطفيف، جاء سؤال مباشر: ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون؟ أي ربط التطفيف في الميزان وفي كل المعاملات بالآخرة! فالمعاملة أمر عقدي وهي في حقيقتها نابعة من العقيدة! فإذا كانت عقيدتك سليمة حقا، كانت معاملتك سليمة! والمدهش أن السورة كلها بعد ذلك تتحدث عن الآخرة وكيف أن الأبرار في نعيم والفجار في جحيم! سبحان الله! اللهم حسن فهمنا وعملنا!

- قل كل يعمل على شاكلته: شاكلتك تظهر في كلماتك وأفعالك، في قراراتك ومواقفك وأصدقائك، بل تظهر على صفحات وجهك وفلتات لسانك!

- من عظيم لطف الله بنا، أن ما نحسبه أكبر ابتلاء، قد يكون أكبر عطاء! وما نحسبه أكبر مصيبة، قد يكون أكبر نعمة!

- كذلك كدنا ليوسف: وليس كذلك كاد يوسف! الله تعالى يتولى أمر المتقين!

- دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون: من فضل الإخلاص، أن الله تعالى يستجيب به حتى للمشركين!

- وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين: مع الحق قال "على"؛ فطريق الهدى يعلو بصاحبه، ومع الضلال قال "في"؛ فطريق الضلال يهوي بصاحبه!

- بلغ الغمّ بالسيدة عائشة مداه في حادثة الإفك، فظلت تبكي حتى قالت: "ظننت أن الحزن فالق كبدي." فرفقا بأحبابكم!

- هل علمت كتابا لا يمكن ترجمته، سوى القرآن الكريم؟

سيمضي العمر، ويضعف الجسد، وسيخفت بريق الحياة الكاذب، وتسقط كبرياؤها الزائفة، ولا يفوز إلا الوفي الذي يبقي على قلب سليم!

إذ تستغيثون ربكم، فاستجاب لكم: لو استغثت لأجابك!

إنه كان ظلوما جهولا: ليس هناك حقيقة أوضح من جهل الإنسان، ولم يفسد الكون مثل ظلم الإنسان!

قد تهديك بسمة لطفل صغير لا تذكرها!

وقد تهديك كلمة حق أو صدق قلتها، ثم اعترتها خطى النسيان!

قد يهديك سرور خفي في قلبك لخير حصل لصديق!

وقد تهديك سعادة شعرت بها لغيرك لم تنل منها حظا!

بل قد تهديك كلمة لم تقلها؛ عفّ عنها لسانك وأنت محق مظلوم!

وقد يهديك شيء لا تعلمه من نفسك!

وقد تهديك ركعة أو دمعة!

لقد رضي الله عن المؤمنين (إذ يبايعونك) تحت الشجرة (فعلم) ما في قلوبهم.

عندما يتحقق علم الله بما يرضيه في قلبك حقا، فسوف يرضى عنك!

أكبر عقاب للظالم، هو الإملاء له في هذه الدنيا، يفعل فيها ما يشاء!

الكريم يسعد لرغبتك في إسعاده بأي شيء، أكثر من أي شيء!

من الالتفاتات اللغوية المعجزة في سورة يوسف:

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ.

ثم جاء بعدها مباشرة:

وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ.

فتحول الخطاب من الحديث بين الأبناء، إلى حديث مباشر منهم إلى يعقوب عليه السلام ورده عليهم، فانتقلت السورة من مشهد إلى مشهد، ومن مكان إلى مكان، ومن خطاب إلى خطاب، ومن زمن إلى زمن، ومن حال إلى حال، دون أي فواصل زمنية!

أسلوب معجز لا يترك لأي ملحد أي حجة مطلقا، لأن مثل هذه الأساليب اللغوية، لا يمكن إلا أن تكون ربانية!

- كل دعاء تدعوه بيقين، يُجاب ولو بعد حين!

- إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا:

"إنّما" تفيد القصر والحصر، أي لا يبتغون شيئا آخر، وذلك أعلى أنواع الإخلاص. فلو قال "نطعمكم" دون "إنما"، لم ينف ذلك إطعامهم لغير وجه الله، وهو غير المقصود.

لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، أي لا نريد مكافأة بالعمل، ولا نريد شكرا باللسان.

وقدّم الجزاء على الشكر، لأن الجزاء بالعمل أهم من الشكر باللسان، فالناس يهمهم الجزاء وليس الشكر باللسان فقط.

ونلاحظ تكرار (لا) في قوله (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) ولم يقل (لا نريد منكم جزاء وشكورا) أي لا يريدون أي واحد من الجزاء أو الشكر، حتى لا يُفهم أنهم قد يريدون أحدهما.

وقال لا نريد ولم يقل لا نطلب، لأن الإنسان قد يريد ولا يطلب. فنفي الإرادة أبلغ وأعمّ من نفي الطلب.

- قد تكون أكرم سنن الله مع المؤمنين أن يعطيهم في الآخرة قدر ما يمنعهم في الدنيا! فلنستقل أو نستزد!

- النقد والتقويم والتشجيع الدائم لمجتمع مريض، كالعلاج الدائم للمريض!

- المؤمن الطبيعي العادي لا يكذب، ولو حاول الكذب، لا يستطيع!

- إن غاب عنك التوفيق، فقدت كل شيء، ولو كان معك كل شيء!

- تقديم النبي لبعض من يحفظ سور القرآن، لم يكن للحفظ ذاته، ولكن لما وعته قلوب هؤلاء من عقيدة ورسوخ إيمان، بحفظ تلك السور!

- الله يعلم عنك، ما لا تعلمه عن نفسك؛ خيرا أو شرّا!

- من كثرة ما أصبحنا نرى من تغير حال الناس، أصبحنا نعوذ بالله من تغير الحال!

تختلف النعم والابتلاءات، لكن الناس سواسية بعدل العادل الذي لا يحابي!

ركعات قصيرات تنير عتماء روحك بالليل، وتزهر وردا في صحراء قلبك بالنهار!

الجمال الحقيقي جمال الروح والقلب، أما جمال الشكل، فأي فضيلة لك فيه؟

كان المسلمون عند ذكر الأندلس بعد سقوطها، يقولون: "أعادها الله للإسلام".

كان زميلا لها في كلية الطب، لكنه لم يستطع طلب يدها للزواج، فخطبها مهندس.

تعرضت لألم مفاجئ، فذهبت إلى المستشفى، لتجد زميلها ضمن الأطباء.

أجريت لها جراحة، فهمست والدة الخطيب لابنها بأن الأطباء قالوا: إنها ربما لن تتمكن من الإنجاب، وأنها لا تصلح للزواج.

احتاجت إلى نقل دم، فرفض الخطيب، لكن الزميل منحها الدم وتابع العلاج.

فسخ الخطيب الخطبة، فتقدم الزميل للزواج.

لديها الآن طفلان جميلان وتعيش في سعادة، وخطيبها السابق يعاني من العقم لسنوات!

قصة حقيقية ودرس في الإخلاص والتوكل على الله

- الإنسان الغنيّ هو من لا يحتاج إلى أحد من الناس!

- أجمل شعور بالسعادة، عندما تجعل غيرك سعيدا!

- فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون: يأخذ الله الظالم في أشد أوقاته أمانا واطمئنانا وثقة!

- نقص التدين كارثة كبرى! لكنّ فساد التدين كارثة أكبر!

- النفوس الطيبة، لها وجوه جميلة، ولو لم يكن لها قسمات جميلة، والنفوس القبيحة، لها وجوه قبيحة، ولو كان لها قسمات جميلة!

- "فاستخف قومه فأطاعوه." لماذا؟ "إنهم كانوا قوما فاسقين".

- معظم الناس لا يُنصف المقرّبين؛ يحسبهم "مضمونين"! لكنّ هؤلاء "المضمونين" إذا تخلّوا، لا يعودون!

أكثر علاقة يحاول الشيطان إفسادها دائما: علاقة الزوجين، وعلاقة الأخوة في الله!

لأنها آخر ملاذ للمؤمن، وآخر حصن أمام الشيطان!

إن حالفك التوفيق، نجحت ولو كان كل شيء ضدك! وإن خالفك التوفيق، فشلت ولو كان كل شيء معك!

المشكلة فيما أخذ بسيف الحياء، ليست في الأخذ فقط ! لكن في نية استشراف الآخذ، وانعدام نية المعطي!

رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات... رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أَن نعبد الأصنام: الخليل عليه السلام قدّم الأمن والحرية على الطعام وعلى اجتناب عبادة الأصنام؛ لأن في أجواء الحرية، ينمو الرخاء، وتتجه الفطرة إلى عبادة الله من تلقاء ذاتها.

إنهم أناس يتطهرون! عندما تفسد الفطرة، تصبح الفضيلة مستنكرة ! فأهلكوا بمطر التطهر الذي أنكروه، عقابا لهم من جنس عملهم!

الثورات الحقيقية، تقع في فكر وأخلاق الشعوب، قبل أن تقع في أنظمتها!

الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا: هؤلاء ليسوا المتهاونين أو مرتكبي الذنوب فقط، لكنهم أيضا:

- من جعلوا الدين مظهرا وحسدا وتكالبا على الظهور والزعامة الدينية.
- من أفتوا بغير علم.
- من أحبوا الظهور بمظهر أهل العلم.
- من تلاعبوا بالنصوص لتحقيق مآرب شخصية.
- من فسروا النصوص لتوافق أهواءهم وآراءهم الشخصية.
- من لبسوا رداء العلم والدين تعويضا عن نقص تعليم أو شخصية!

لم يُغفر لمن قتل 100 والبغيّ التي سقت الكلب، لمجرّد الهجرة أو السُقيا! لكنّ المغفرة كانت لعدم رؤية العمل، وشدة الإخلاص في القلب!

كما يمحو حسن الخلق كثيرا من السيئات، فإن سوء الخلق يمحو كثيرا من الحسنات!

- لو جادلت نصرة لرأيك، فأنت على خطأ ولو كنت محقا! ولو جادلت نصرة للحق، فأنت على صواب ولو كنت مخطئا!

- إذا حسنت النية، نفع العلم والعمل ولو كان قليلا! ولو فسدت النية، لم ينفع العلم والعمل ولو كان كثيرا!

- عندما قال النبي للصحابي: استفت قلبك، كان كلامه عن قلب سليم، ليس قلب شهوة، أو شبهة، أو هوى!

- حتى نحاول فهم الطباع الحقيقية للناس، فإن ما يحدد معالم الشخصية بالفعل هو الوراثة والنشأة في سنوات الصغر الأولى. فهي التي تحفر الخطوط العميقة والأساسية للشخصية، وترسم ملامحها التي يصعب بل قد يستحيل تغييرها!

هذه الخطوط هي التي ترسم الشخصية الحقيقية وتحدد طباعها الأساسية، واختياراتها الحقيقية عند الاختبار العملي وفي واقع الحياة.

دعك من الثقافة والكلام والالتزام الديني الشكلي والمظهري؛ فكل ذلك لا يعدو أن يكون مجرد قشرة خارجية، لا تلبث أن تقع بمجرد مواجهة الاختبارات العملية والاختيارات الحقيقية، إن لم يكن وراءها جوهر صلب وأصل نبيل! وصدق نبينا: الناس معادن!

- صنفان من الناس لا أطيق النظر إلى وجوههم: الشهداء من الشباب؛ حياء منهم وأسفا عليهم، وشيوخ السلاطين؛ سخطا عليهم واحتقارا لهم!

- أهمّ من العمل، النيّة في العمل!

- طلب ملاحدة الحاضر أدلة حسية على وجود الله، لا يختلف عن طلب مشركي الماضي معجزات من السماء! إنه الجهل نفسه يكتسي ثوب العلم زورا!

- كان الاحتلال قديما يقع في غفلة من الشعوب، ودون إرادتها! أما الآن، فيقع مع كامل وعيها، وكامل إرادتها!

- يعمل أعداء الإسلام في اتجاهين: علمنة الإسلام لتضييع معالمه، وأسلمة العلمانية لتسويغ الكفر لدى المسلمين!

- لجهل الإنسان وقصر نظره، لا يدرك حكمة الله في قدره معه، ولطفه به، إلا بعد حين!

- من أراد تيسير أموره في مواجهة الحياة وأنوائها، فعليه بقيام الليل، واللهج الدائم بكلمة لا حول ولا قوة إلا بالله!

- واسجد واقترب: كلما زاد سجودك، زاد قربك!

- الذين تتوافهم الملائكة طيبين... المؤمن عند الوفاة، كالثمرة التي تطيب أطيب ما تطيب عند قطافها!

- جاء التشبيه المتكرر في القرآن الكريم، بأنه مثل الماء للأرض، لأنه ينبت الخير في القلب، مثلما ينبت الماء الخير في الأرض!

- ليس العمل بحجمه أو عدده، بل بالإخلاص فيه!

- تكرار الآيات القرآنية بأن لله ملك السموات والأرض، ليس لمجرد التقرير، بل لكي يستشربها قلب المؤمن، فيخشاه ويرجوه ويتوكل عليه وحده.

- أجهل الناس أكثرهم ادعاء لعلمه، وأعلمهم أكثرهم اعترافا بجهله!

- يصبح كل شيء سهلا واضحا قابلا للإفتاء، عند الجهلة ومدّعي الثقافة والعبقرية!

- ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين... وتكونوا من بعده قوما صالحين.

- يسوغ المجرم مبررات جريمته، ثم يهونها بعد ارتكابها!

- المواقف النبيلة، لا تعني بالضرورة أن يكون وراءها دوافع نبيلة!

- أحسب الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. لم يقل أحسب المؤمنون. فقد نزع عنهم صفة الإيمان حتى يثبت بعد الفتنة!

- حاول في حياتك دائما، التفرقة بين ما هو شائع وما هو طبيعي، أي بين ما يفعله معظم الناس وما هو صحيح!

-

- الإسلام هو العقيدة الوحيدة التي لم تعرف الإبادة الجماعية، أو الاحتلال الاستيطاني، أو معسكرات الاعتقال، أو التغيير السكاني!

- لم تكشف سيرة حياة، كصفحة مكشوفة في أدق تفاصيلها الشخصية والعامة، على مر التاريخ، كما كشفت سيرة حياة نبينا صلى الله عليه وسلم!

- عندما أيقن أعداء الإسلام باستحالة تحريف القرآن الكريم، مثل الكتب السماوية الأخرى، عملوا جاهدين على تحريف فهم المسلمين له!

- من الكبر الثقافي أن تسمع للكذب، مدعيا أنه لن يغير قناعتك، وأنك ستعرف الصواب من الخطأ! ففي ذم اليهود، نزلت: سماعون للكذب!

- كم يألم الحق ممن يدعيه بغير حق، وكم يشكو ممن ينتحله بظل لا حقيقة له!

- على نار الألم، ومرارة الصبر، ومكابدة المشاق، تنضج الحكمة!

- بقدر ما ينحسر الإسلام، تسود العلمانية، وبقدر ما يسود الإسلام، تنحسر العلمانية!

- عندما ألف علماء الفقه القدامى الكتب، كانوا يضعون العبادات والمعاملات في باب واحد، إدراكا منهم لأنها كشيء واحد!

- لا تدهشني الثقة التي يتحدث بها الجهلاء، فهي ثقة غرور الجهل وعمى البصيرة!

- كلما أحسنت أمة الإسلام إسلامها، قويت من ضعف، وعزت من ذل، واتحدت من فرقة، وأمنت من خوف.

- يوم ندعو كل أناس بإمامهم. انظر إلى قدوتك في الدنيا، لأنك ستدعى بها يوم القيامة!

- قيم الإسلام الأساسية ليست للتفريغ من مضمونها، باسم أي قيم بشرية تخرجها عن قدسيتها وطبيعتها الربانية!

- حروب اليوم ليست فقط مدافع وطائرات، لكنها قبل ذلك حروب الأفكار والمعتقدات!

- تخلف المسلمون عندما تخلوا عن الإسلام، فادعى المحتل أن سبب تخلفهم هو الإسلام!

- يؤدي تضليل دعاة السوء المزيفين، ودعاوى تجديد الخطاب الديني المزيفة، إلى خلل المعايير، وفقدان الهوية، لدى الكثيرين!

- وقتل داود جالوت: بعد الأخذ بكل أسباب النصر، قد يأتي النصر من أضعفها، لأنه ليس إلا من عند الله!

- هذا الدين يحارب من أهله، كما يحارب من أعدائه!

- المسلمون الأوائل سادوا لسببين: حب الآخرة على الدنيا، والأخذ بكل أسباب النصر.

- فاستخف قومه فأطاعوه: الأمة التي تستخف، تستذل!

- الحرية مع خوف وفقر، أكرم من العبودية مع أمن وثراء!

- مراقبة الدوافع، من أهم وأدق معالم الإخلاص!

- لا تترك مشاغلك، أو مشاغل من حولك، تشغلك عن نفسك!

- في عصر الخواء، يستمد الكثيرون شعورهم بقيمتهم من السلع: بسيارة، بملابس، بحذاء، أو حتى بعلبة سجائر!

- العلم الزائف، أخطر من الجهل، لأنه جهل مركب!

- الحضارة الحقيقية، هي التمسك بالقيم والعقيدة، والبناء عليها! أما استيراد المنتجات والأفكار والمظاهر، فهو تبعية عمياء!

- الجبن ليس ألا تؤيد الظالم فقط، بل وأن تخذل المظلوم!

- كيف تعرف العلماني؟ تجده يعتقد بأن الأخلاق نسبية، وأنها انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية، وأنها من صنع العقل الجماعي فقط، والمجتمع هو الذي يحدد الصواب والخطأ منها، وليس مصدرها الدين!

- كيف تعرف العلماني؟ يعتقد بأن تعاليم الدين ليست إلا امتدادا لشرائع قديمة مثل القانون الروماني، وأنها تعاليم عفى عليها الزمن، وأنها تناقض العلم، ولا يستفيد منها المجتمع!

- ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب: كتب العذاب على اليهود! ولو توقف برهة، فلا تتشكك، فالتعقيب: إن ربك لسريع العقاب.

- "إن الله لا يصلح عمل المفسدين": رسالة إليك: لا تضع يدك في يد مفسد!

- خسارة بكرامة، أهون من كسب بمهانة! وضريبة العبودية، أفدح من ضريبة الحرية!

- من عجائب اليهود أنهم لما استوطنوا جزيرة العرب هربا من الرومان، لم يحاربوا عبادة الأصنام! لكن عندما ظهر الإسلام، حاربوه بكل السبل!

- إن أردت سلام قلبك، حرره من كل قيد، وأعده إلى خالقه!

- كيف نتوقع أن تكون ابتلاءاتنا في هذه الحياة سهلة ميسورة، أو نتجاوزها بسهولة، وهذه الدنيا لم تخلق أصلا إلا للابتلاء؟

- لو لم نألم، لتخلينا عن إنسانيتنا! وعلى قدر إنسانيتنا، يكون الألم!

- ضحايا العبودية أضعاف ضحايا الحرية! والأمة التي تضحي بحريتها في سبيل استقرارها، لا تنال حرية ولا استقرارا. والأمة التي لا يموت شهداؤها بكرامة، تفقد أضعافهم في حروب الوكالة بمهانة.

- صاحب الدعوة إلى الحق لا بد أن يدفع الضريبة "واصبر على ما أصابك"

- لكن صاحب القلب الكبير يصفح، لإرادة الخير لغيره! "إن ذلك من عزم الأمور."

- قد يكون في أشد ما تحبه في هذه الحياة، ضررك، وقد يكون في أشد ما تكرهه، نفعك.

- كانت أول كلمة لموسى عليه السلام، وأول رد فعل له بعد الوحي، مع عظم الرسالة، ومع خوفه من بطش فرعون: "رب اشرح لي صدري."

والحمد لله رب العالمين